FAKHREDDIN AL-MANI 2nd

رحلة الأمير فخر الدين إلى إيطاليا

(1613-1618)

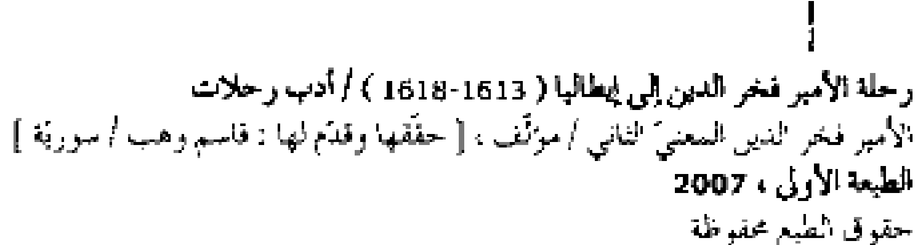
الأمير فخر الدين المعني الثاني

حققها وقدم لها: قيس وهبي





رحلة الأمير فخر الدين
إلى إيطاليا
(1618-1613)



رحلة الأمير فخر الدين إلى إيطاليا (1613-1618) / أدب رحلات
الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني / مؤلّف ؛ [حقّقها وقدّم لها : قاسم وهب / سوريّة]
الطبعة الأولى ، 2007
حقوق الطبع محفوظة



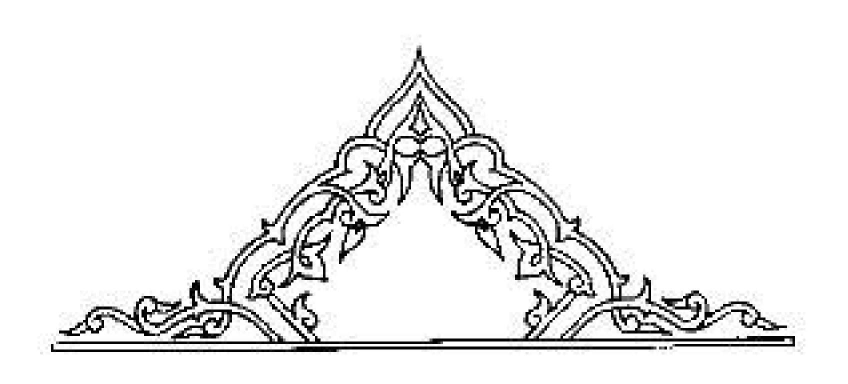


دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : 44480
الإمارات العربيّة المتّحدة ،
هاتف 00971 2 6322079
فاكس 00971 2 6312866

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب 11-5460 ،
هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail: info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com
التنفيذ والإشراف الفنّي :
تصميم الغلاف : ناصر بخيت / السودان
خطوط الغلاف : زهير أبو شايب / الأردنّ
الصفّ الضوئي : القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان

ISBN 978-9953-36-974-7

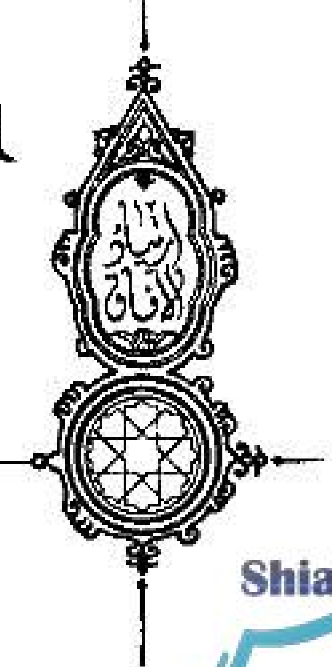


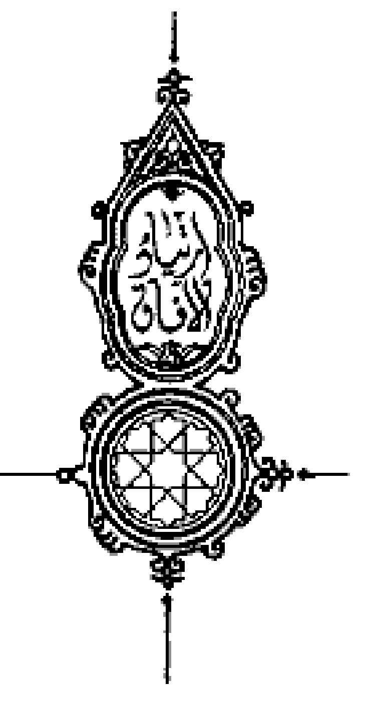
رحلة الأمير فخر الدين إلى إيطاليا

(1613-1618)

الأمير فخر الدين المعني الثاني

حققها وقدم لها: قاسم وهب





يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجراح

« . . . . وكذلك في بلادهم يطبعوا كتبهم الذي بلسانهم ، وفي لسان العربي ، والطبع له قوالب مربعة ، والحرف في راس القالب ، وكل حرف له قوالب عديدة ؛ يعملوا لوح من خشب له تاريز على طول القالب الذي فيه الحروف ، وإذا أرادوا يعملوا كتاب يصفُّوا الحروف على جميع الكلام الذي في صفحة الكتاب» .

الرحلة ص 66

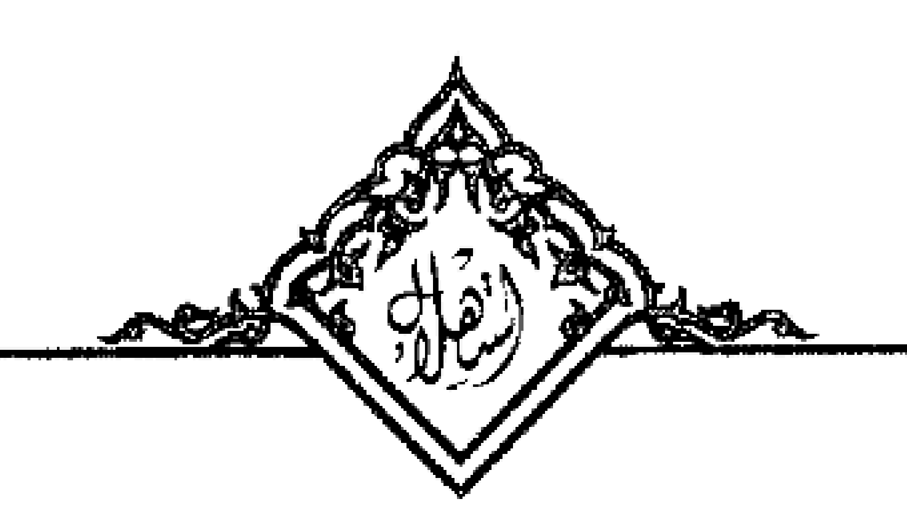
« . . .وفي بليرموا برَّات الصور جامع إسلامي من زمن الفاطميين لأن الجزيرة كانت في يدهم ، وبعده باقي على حاله بقبابه .»

الرحلة ص 87

« . . . وفي صبيحة ثاني يوم صادفهم غليون قرصان ، وقصدهم وبقا الريح طيِّب للجميع لا هو يقدر يلحقهم ولا هم يسبقوه . فلما غابت الشمس افترقوا ، وبقوا مسافرين حتى اشرفوا على عكا ، فاختلف الريح عليهم ، وما مكَّنهم الريح من الدخول إليها .»

الرحلة ص 98





أعلن عن جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي سنة 2003 وتهدف إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات واليوميات ، وهو ميدان خطير ومهمل ، وقد تأسست الجائزة إيمانًا من «المركز العربي للأدب الجغرافي -ارتياد الآفاق» و«دار السويدي» بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز ، وتكريسًا لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري ، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية ، وإخراجه إلى النور ، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان ، والسفر فيه ، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر ، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي ، لم ينل اهتمامًا يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات ، مع التنويه بتزايد أهمية المشروع وجائزته في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم ، وتنعكس سلبًا على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى ، فالأدب الجغرافي العربي (وضمنًا الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن «الآخر»

في مختلف الجغرافيات التي ارتادها رحالتهم وجغرافيوهم ودوّنوا انطباعاتهم وتصوراتهم الخاصة بهم عن الحضارة الإنسانية والاختلاف الحضاري حيثما حلّوا .

في دورتها هذه كما في دوراتها السابقة تواصل الجائزة التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة ، من جهة ، وتشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياتهم المعاصرة في السفر ، وحض الدارسين على الإسهام في تقديم أبحاث ودراسات رفيعة المستوى في أدب الرحلة .

***

مكتبة عربية لأدب الرحلة . . . من كان يصدق؟ موسيقى لا تهدأ ، وصخب لا ينتهي ، وسطور الرحالة مدونات هي لوحات فنية مدهشة ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة ، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات ، حدس شاعري وابتكار فني وجمال في التعبير ، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة فيأتي بالممتع والمدهش . مرايا تتعاكس ، بلدان قريبة وبعيدة ، أماكن جديدة وزوايا لم تستكشف يرتادها عاشق مغامر كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة . وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها ، بل يستغرق في ملامحها ، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها وكأنه يتأمل نفسه في مراياها . . . تلك هي الرحلة ، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير ، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها . هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المدن والأنهار والجبال ، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان كما هي عابرة للمكان .

***

بدأنا برحلة ، وقلنا إننا سنختتم معًا مائة رحلة ، أما وقد وقفنا على أعتاب الكتاب المائة فأي معجزة هذه . . ولم يمضِ عل مشروع «ارتياد الآفاق» أربعة أعوام؟!

إنني لأحيي أولئك المغامرين القدامى من أبطال الرحلة ، فرسانا امتطوا صهوات الجياد واقتحموا غمار الموج ، سالكين دروب الدهشة والخطر ؛ وأتطلع بفرح غامر إلى هذه الكوكبة الجديدة من الرحالة المعاصرين ، الذين واكبوا مشروع «ارتياد الآفاق» وتألقوا في مسالكه . أطالع عشرات الأسماء والعناوين التي تزدان بها أغلفة الكتب ، وهي تنقلنا بين المدن والبلدان والقارات ، هؤلاء هم غواصو لآلئ الرحلة العربية ومبدعو أدبها الروائي الجميل . إنهم ثروة الأمة من الناظرين في كل جهات الأرض ، وسفراؤها إلى العالم ، العائدون بالرؤى والمعارف والخبرات ، أهل المشاهدة وأهل الحوار مع الآخر بصفته أنا أخرى وشريكا على هذا الكوكب .

في أسواق المدن وأكشاك المطارات والموانئ ومحطات القطار نمر بألوان من كتيبات السياحة وصور المنتجعات وإعلانات الفنادق وشركات السفر . هذا شيء آخر غير أدب الرحلة ؛ واليوم ، فإن المكتبات الحديثة المنتشرة بين المدارس والجامعات والمراكز الثقافية لم يعد في مقدورها أن تستغني عن كنوز أدب الرحلة وروائعها ، بل أفردت لها رفوفا خاصة بها .

الرحلة ، كما آلت إليه ، سفر في الأرض وسفر في المخيلة ، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود .

***

تَهْدِفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيّاتِ أدبِ الرّحلةِ ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم

وانطباعاتهم ، ونقلوا صورًا لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القَرنين الماضيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب ، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرة الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشّرقِ ، ورسموا له صورًا ستملأ مجلدات لا تُحصى عددًا ، خصوصًا في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيء لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم ، وتُمهّدُ الرأي العام ، تاليًا ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

***

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين ، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم ، بواسطة مخيّلةٍ جائعةٍ إلى السّحري والأيروسيّ والعجائبيّ ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة ، ركّز ، أساسًا ، على تتبع ملامح النهضة العلميّة والصناعيّة ، وتطوّر العمران ، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالبًا ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساسًا ، من بابِ طَلَبِ العلم ،

واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشلل الحضاريّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، نجد أحد المصادر الأساسية المؤسّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسّر على ماضيه التليد ، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرّحالة ، والانتباهات التي ميّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكّل ثروةً معرفيّةً كبيرةً ، ومخزنًا للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها .

***

أخيرًا ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسة التي شارفت اليوم على المائة كتابٍ أسست ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريّة تكشف عن همّة العربيّ في ارتيادِ الآفاقِ ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

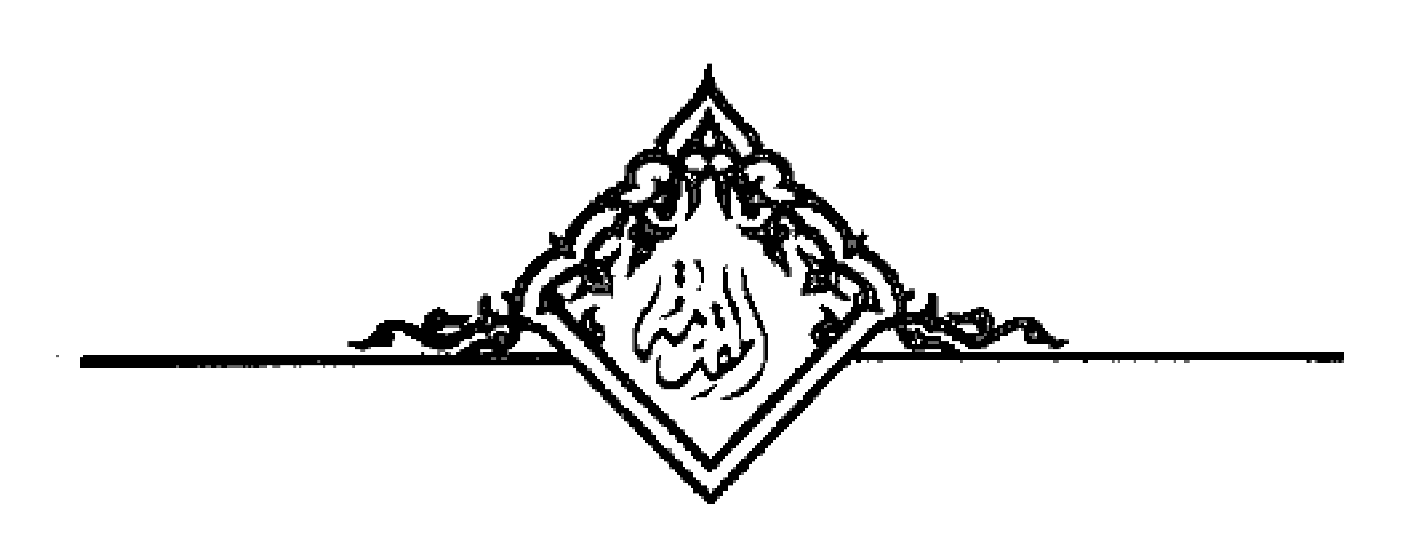
***

ختاما ، أحيي رحالة من طراز آخر ، أولئك المثقفين المبدعين القائمين على مشروع ارتياد الآفاق والعاملين فيه والمتحلقين حوله من الباحثين الذين استكشفوا هذه المنطقة المطموسة والمغفلة من ثقافتنا العربية بقدرات المغامرين من العلماء ودأب المستكشفين ، فالتمسوا المخطوطات والنصوص النادرة في مكتبات العالم ورجعوا بها كما يرجع الغواصون باللآلئ ، وسهروا على فك رموزها وتحقيقها وإخراجها إلى النور ليكون لنا من وراء جهودهم المضيئة مكتبة متعاظمة من أدب الرحلة ما تزال عناوينها تتوالى وسلاسلها تتعدد ، ليكون في وسع ثقافتنا العربية أن تبرهن من خلال هذا اللون الممتع والخطير من الأدب أنها ثقافة إنسانية فتحت نوافذها على ثقافات العالم وتجارب شعوبه ، ودون رحالتها مشاهداتهم وثائق أدبية وتاريخية ترقى إلى ما يربو على ألف من السنين ، فأنجزوا مع ريادتهم الآفاق ريادتهم في أدب السفر .

فهنيئا للقارئ العربي الجاد بهذه المكتبة الجديدة ، وللأجيال التي ستقرؤنا بعد مائة عام .

محمد احمد السويدي

أبو ظبي يونيو/ حزيران 2006



I

تُعدّ رحلة الأمير فخر الدين المعني الثاني من الوثائق النادرة في بابها ؛ فهي من أقدم المدوّنات العربية التي وصفت جوانب مهمة من مدنيّة أوربا في مطلع القرن السابع عشر ، حيث إن بعض المدن التي زارها المعني أو أقام فيها شهدت بدايات النهضة الأوربية الحديثة التي عمّت آثارها فيما بعد أرجاء المعمورة كافة .[1]

فالملاحظات المدونة في هذه الرحلة تدعونا إلى القول : إن التفاوت الحضاري بين العرب والغرب آنذاك لم يكن كبيرا ، بل ربما كان بوسع العرب تجاوزه لو لم يقُم العثمانيون بقطع الطريق على أية تطورات ترمي إلى تأسيس نهضة عربية تستلهم نهضة الغرب ، أو تستفيد من بعض منجزاتها .

وما يزيد من أهمية هذه الرحلة أن صاحبها رجل دولة محنَّك ، ومحارب لا يشقّ له غبار ؛ إذ لم يتوانَ عن الوقوف في وجه أكبر إمبراطورية في الشرق ، ليس حباً منه بالحرب ، بل دفاعًا عن شعبٍ أرهقته المظالم ، وأنهكته

---

(1) من أهم المدن الأوربية التي شهدت بدايات النهضة الأوربية مدينة فلورنسا التي أقام فيها الأمير فخر الدين نحو سنتين .

الحملات العسكرية المتوالية التي طالما شنها عليه الحكام والولاة العثمانيون بذرائع مختلفة ولأسباب واهية . لذلك لم يجد بُداً من بناء دولة عصرية متقدمة بوسعها أن تضع حداً لغطرسة القوة التي يمارسها العثمانيون ، والحفاظ في الوقت نفسه على علاقات طيبة مع إسلامبول .

والميزة التي لا تقل أهمية عما سبق هي اللغة التي كُتب بها هذا النص ، وما تحمله من دلالات تعكس المستوى الذي انحدرت إليه أساليب الكتابة في زمن تفشّى فيه الجهل والتجهيل بين الخاصة والعامة على السواء ، ولا يستثنى من ذلك إلا القلة . ولكن هذه اللغة في الوقت نفسه تغري المعنيين بالدراسات اللغوية بالنظر في تطور اللهجات المحكية في بلاد الشام خلال القرون الأربعة الأخيرة ، وما طرأ عليها من تغيير ، وما حملته من مصطلحات ، وما خالطها من مفردات مستحدثة أو مُعرّبة ، إلى غير ذلك من أمور لا يتسع المجال للحديث عنها .

II
الرحّالة

أما صاحب هذه الرحلة ، فهو فخر الدين بن قرقماس بن فخر الدين المعني الأول الملقب بسلطان البر ، وبنو معن من سلالة ربيعةَ الفرس بن نزار بن معد بن عدنان . وقد انتقل جدُّ الأسرة المسمّى «أيوب» من نجد إلى الجزيرة الفراتية بعشيرته ، وعُرف نسلُه هناك بـ«بني أيوب» إلى أن ظهر فيهم الأميرُ ربيعة الذي غادر الجزيرة ليُقيم في الجبل الأعلى من نواحي حلب ، ثم خلفه ولده معن بن ربيعة جدُّ الأسرة المعنية الذي صاهر التنوخيين أصحاب معرة النعمان . وعُرف معن بإقدامه وشجاعته حيث أبلى بلاء عظيمًا في قتال الصليبيين قرب أنطاكية ، وحصلت بينه وبينهم حروبٌ عظيمة سنة 511 هجرية الموافقة لسنة 1117 ميلادية . «انتصر فيها الأمير معن على الإفرنج وأهلك منهم خلقًا كثيرًا»[1] مما جعل كبير الإفرنج «بلدوين» ملك القدس يقود

(1) تاريخ الأمير حيدر الشهابي . ج1 ص 433 .

جيشًا تعداده أكثر من خمسين ألفًا لقتال الأمير معن ومن معه من عشيرته ومن أصحاب غازي أمير الترك . وحصلت بين الفريقين حربٌ ضروس كانت الغلبة فيها للفرنجة ، وذلك لأن جيش الأمير معن لم يكن يتجاوز عشرة آلاف مقاتل .

فلما استفحل أمر الفرنجة في تلك الديار ارتحل الأمير معن بالعرب الأيوبية إلى سهل البقاع سنة 514هـ ، ولكن طغتكين صاحب دمشق الذي كان يُحسن الظن به ، ويثق بشجاعته طلب إليه أن ينهض من البقاع ليتحصَّن بالجبال العالية من لبنان المشرفة على البحر ، فيشنّ منها الغارة على الفرنجة الذين في السواحل البحرية ، ومنذ ذلك الحين عمَّر المعنيون منطقة الشوف «فتقاطر إليها الناسُ لحُسن جوارهم وكرمهم من أنحاء حوران ، ودمشق ، وحلب وضواحي لبنان هربًا من الإفرنج ؛ فأسكنوهم بينهم .»[1]

توفي الأمير معن سنة 544 هجرية الموافقة لسنة 1149 ميلادية ، وخلفه ولدُه الأميرُ يونس . وفي أواخر أيامه جاء الشهابيون من حوران إلى وادي التِّيم وتحالفوا مع بني معن ، بعد أن تمكن الشهابيون من هزيمة الفرنجة وطردهم من تلك الديار .

ولد الأمير فخر الدين المعني الثاني في بعقلين ، حاضرة الشوف ، سنة 1572م ؛ وشهد في طفولته المجازر البشعة التي ارتكبها والي مصر العثماني إبراهيم باشا بحق أهالي الشوف بناءً على تهمة ألصقها بهم يوسف سيفا صاحب طرابلس وعكار ، ومنصور بن الفريخ صاحب البقاع والجليل ونابلس ، بزعمهما أن هؤلاء سلبوا الخزينة السلطانية المرسلة من طرابلس إلى الأستانة ، فكانت ضحية هذه المجازر في بعض الروايات ستين ألفًا وذلك سنة 1585م كما ذهب ضحيتها الأمير قرقماس والد فخر الدين الذي مات قهرًا .

وكان الأمير فخر الدين حينذاك في الثانية عشرة من عمره ، فبقيت تلك الصور المؤلمة ماثلة في ذاكرته مدى الحياة ، مما أورثه حقدًا وكرهًا للعثمانيين وأعمالهم الوحشية .

تسلم فخر الدين إمارة الشوف وهو دون العشرين من العمر ، ثم تولى سنجقي

---

(1) تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني - عيسى اسكندر المعلوف - ص 30 .

بيروت وصيدا ، ودخل في صراع مرير مع الدولة العثمانية ممثلةً ببعض وزرائها وحكامها ، أو عبر أمراء الجوار الموالين لها . ولكنه وضع نُصب عينيه بناءَ دولة قوية تستطيع أن تقف في وجه الحملات العثمانية الظالمة على بلاده إذا اقتضى الأمر ذلك ، دون أن يُفرِّطَ بولائه للباب العالي .

فشرع فخر الدين في توسيع نطاق إمارته لتشمل سنجق صيدا والبقاعين ، ومدَّ سلطته إلى ما وراء طرابلس لتطويق آل سيفا خصومه ؛ فوطّد علاقته بمن حوله من الأمراء الأرسلانيين ، وبني شهاب حكام وادي التيم ، والحرافشة حكام بعلبك والبقاع ، والجنبلاطيين حكام كلس وضواحي حلب ، وأمراء العرب في حوران وفلسطين ، ومقدمي المسيحيين في لبنان ، كما استمال العديد من الحكام والوزراء العثمانيين بالأموال والهدايا لتحقيق هدفه .

ولكن حاسدي المعني كُثر ، مما اضطره لتحصين نفسه وبلده ، فأسس جيشًا قويًا من السكبان[1] واللبنانيين تعداده نحو مئة ألف جندي ، وجهز لهم القلاع والحصون وشحنها بآلات الحرب والحصار ؛ فلفت إليه الأنظار ، وقصده التجار من دول أوربا ولا سيما دولة تسكانا ، وسعوا في توسيع نطاق التجارة مع الإمارة المعنية .

ولما كان السلطان العثماني أحمد الأول منصرفًا إلى محاربة شاه العجم وملك المجر سنة 1603 سارع فخر الدين إلى توسيع نطاق ملكه ؛ فاستولى على بلاد صفد ، وعجلون ، وبانياس ، وكسروان ، والثغور البحرية ، وبيروت ، وصيدا ، وعقد معاهدات تجارية مع تجار تسكانا ، ثم وطَّد علاقته بعلي باشا جنبلاط والي حلب للوقوف في وجه بني سيفا حكام طرابلس .

وفي سنة 1608 عقد المعني معاهدة تجارية مع فردينان الأول دوق تسكانا ؛ فازدهرت تجارة الحرير والصابون والمنسوجات وغيرها فربح الأمير أموالاً طائلة ساعدته في تقوية جيشه ، وتحصين قلاعه .

وفي سنة 1609 عقد الأمير فخر الدين معاهدة تجارية حربية مع الدوق قزما الثاني

---

(1) السكبان : جنود غير منظمين من فلاحي الأناضول وبدوها ، برعوا في استخدام الأسلحة النارية ، وهم يبحثون عمن يستأجرهم .

دوق تسكانا ؛ فلفت أنظار الحكام إليه فخافوا من سطوته لتوطيد علاقاته بحكام إيطاليا مما دفع السلطان العثماني إلى إصدار الأمر لأحمد باشا الحافظ بالمسير إلى ابن معن واسترداد الحصون والقلاع التي بحوزته .

ولكن فخر الدين كان يُحسن استغلال الظروف التي تحيط به فما إن يتولّى أحد أصدقائه في الأستانة منصبًا رفيعًا حتى يبادر إلى تقوية مركزه . ففي عهد الوزير مراد باشا صديق الأمير تمكن من إسناد لواء إربد وعجلون إلى ولده حسين ، كما نجح بتوسيع تجارته ؛ فازدهر العمران ، وساد السلم والأمان في أرجاء ولايته . ولكن مراد باشا توفي سنة 1611 فتولى منصب الصدارة العظمى نصوح باشا عدو المعني وصديق الحافظ والسيفي حاكم طرابلس . وعلى الرغم من مساعي الأمير فخر الدين إلى استرضاء الوزير بالمال والهدايا فقد أصر الأخير على استغناء المعني عن السكبان الذين جنَّدهم في جيشه ، وتسليم قلعة الصبيبة وشقيف أرنون بناء على الأحكام السلطانية ، وقتل الأمير يونس الحرفوش صهره وحليفه .

أما والي دمشق أحمد باشا الحافظ فقد سعى بدوره إلى إضعاف المعني بإبعاد حلفائه ، وإدناء خصومه ، ثم أقنع نصوح باشا بأن ما قدمه المعني إليه من الأموال والهدايا أقل بكثير مما قدمه لسلفه مراد باشا على الرغم من غنى بلاده ووفرة دخله ، أضف إلى ذلك سعيه الحثيث إلى الاستقلال .

وعليه فقد عزم الوزير على الانتقام من الأمير فخر الدين ، وكسر شوكته ، لا سيما وأن المعني كان قد تورط في محاربة حلفاء الحافظ عملاً برأي مستشاره الحاج كيوان ؛ فاتخذ الحافظ ذلك ذريعة للكيد للأمير عند سيده نصوح باشا فأعدّ الأخير جيشًا عظيمًا يقوده أربعة عشر أميرًا ، وخمسون لواءً (سنجقًا) بقيادة السردار أحمد باشا الحافظ ، فأطبق الجيش على بلاد المعني من البر والبحر ، وكان الأمير فخر الدين قد سارع إلى ترميم حصونه وقلاعه ، وشحنها بالجنود والسلاح وآلات الحصار ، واستقدم بعض المعدات الحربية والذخائر والمؤن من تسكانا ، وهيأ قلاعه للصمود خمس سنوات تحت الحصار . كما حرص أن يظهر بمظهر المدافع عن بلاده لا بمظهر المتمرد على إرادة الدولة العلية ، وأوصى الجنود المدافعين عن القلاع بالوصية التالية :

«إنني إذا قدر الله علي ، ووقعت في أيدي رجال الدولة ، وقال لكم كبيرهم :

سلموا لنا القلاع حتى نطلق لكم أميركم ، فلا تعتمدوا قوله ، واحفظوا قلاعكم وشرفكم وناموسكم ، ودعوهم يفعلون ما يريدون بعد أن تقيموا شرفكم .»[1]

وحين أدرك الأمير فخر الدين خطورة الموقف عزم على الخروج إلى البرية مصطحبًا ولده علي وبعض أمراء البدو بعد أن أرسل وفدًا من مشايخ صفد وصيدا وبيروت إلى الحافظ ومن معه من القادة بدمشق لإصلاح ذات البين ، ولكن مساعي الوفد مُنيت بالفشل ، لأن الحافظ كان قد صمَّم على الانتقام من المعني .

وبينما كان الأمير يتهيأ للخروج إلى البرية بلغه أن الحافظ قطع عليه طريق جسر الجامع الذي كان المنفذ الوحيد للخروج من الطوق فأُسقِط في يده ، ولم يعد أمامه مهربٌ سوى البحر . ولكن عمارة رودس العثمانية كانت قد توجهت لضبط مرفأ صيدا لمنع الأمير من الخروج عن طريق البحر . وكان قرصان جزيرة مسينا قد أسروا سبعة أغربة عثمانية مما اضطر حاكم رودس إلى إخلاء ميناء صيدا على وجه السرعة لملاحقة القرصان ، واسترجاع الأغربة المذكورة . فسنحت الفرصة ليغادر الأمير ميناء صيدا على متن سفينة هولندية ، ومعها سفينتان فرنسيتان لنقل أسرته ومرافقيه ، ثم توجهت السفن الثلاث إلى دولة تسكانا ، فوصلت إليها بعد أن اجتازت مخاطر جمَّة حيث فرقت عواصف البحر بين سفينة الأمير والسفينتين الأخريين . فوصلت سفينة الأمير في الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1613 إلى أسكلة الفورنا (ليفورنو) بعد ثلاثة وخمسين يوما[2] ، أما السفينتان الأخريان فكان وصولهما بعد أربعة أيام من ذلك التاريخ .

بقي الأمير في منفاه الاختياري نحو خمس سنوات وشهرين تنقَّل خلالها بين عدد من مدن دولة تسكانا ، وصقلية ونابلي التابعتين لسلطان إسبانيا حيث تسنى له الاطلاع على جوانب مهمة من مدنية الغرب ، وسجل انطباعاته عنها في هذه المذكرات التي بين أيدينا ، والتي نظن أن الخالدي الصفدي استند إليها في تدوين

---

(1) تاريخ الأمير فخر الدين (مرجع سابق) : ص 123 - 124 .

(2) ذكر الخوري بولس قرألي في كتابه : فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان أن وصول الأمير إلى ليفورنو كان يوم 3 تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة 1613 نقلاً عن الوثائق المديشية .

أخبار هذه الرحلة ووقائعها . وكان لهذه التجربة الأوربية أثرها العميق في سعي الأمير فخر الدين إلى اللحاق بدول أوربا الناهضة ، واقتباس ما يفيد بلاده من منجزاتها .

وبعد عودته من المنفى عمل على استعادة المناطق التي خسرها في غيابه مثل صفد ونابلس وبعلبك ، والبقاع ، وحوران وعجلون والكرك ، فوسَّع نطاق مملكته ، وعمل على تحسين الزراعة والصناعة والتجارة فازدادت ثروته اتساعًا ، وتمكَّن من الوقوف في وجه حاسديه وخصومه .

وفي سنة 1624 أنعم عليه السلطان بولاية عربستان من حدود حلب إلى العريش ولقبه بسلطان البر لقب جده فخر الدين الأول وذلك بموجب فرمان سلطاني فأصبح فخر الدين «حاكم العرب من كرك الشوبك إلى جبل أنطاكية» .[1]

وعلى إثر ذلك طاف الأمير فخر الدين بالبلاد التي أسندت إليه إدارتها ؛ فشيَّد القصور ، وحصَّنَ القلاع ، وطوَّر الزراعة ، وعقد المعاهدات التجارية مع قناصل الفرنجة ، وانصرف إلى تعمير بلاده وتوفير الثروات فيها مقتديًا بالأوربيين في تحديث بلادهم وترقيتها .

ولكن أعمال فخر الدين جعلته عرضة لسعايات مناوئيه لدى الباب العالي ، والتنبيه إلى خطورة ما يقوم به من مساع جادة نحو الاستقلال ، فشرعت الإدارة العثمانية تعدُّ العدة للإجهاز عليه ، وتحطيم تجربته الرائدة في مهدها ، فوقع الاختيار على ربيب المعني وأحد رجاله السابقين أحمد الكجك الذي كان قد ترك خدمة الأمير مغتاظًا ؛ فكشف للعثمانيين جميع ما يعرفه عن سيده ، وأوغر صدورهم عليه وذلك بعد أن أصبح وزيرًا في الأستانة ، فما كان من السلطان إلا أن أسند إليه مهمة محاربة المعني والاستيلاء على بلاده .

جمع الكجك العساكر من حدود بلاد الروم إلى حدود مصر ، وهاجم بها بلاد المعني الذي كان قد فرَّق عساكره على القلاع والحصون من العريش إلى حلب مما أضعف قوته ، ولم يُبق من حوله قوةً قادرة على حمايته من هذا الهجوم الكاسح ، وكان اليمنيون والسيفيون والحرافشة قد وقفوا ضده ، وانضمُّوا إلى معسكر الخصم ،

---

(1) تاريخ المعلوف ، مرجع سابق ص 247 .

ولم يبق معه سوى حلفائه الشهابيين برجال وادي التيم ومن حوله من رجال الشوف، وبعض جنوده من السكبان.

وقد تمكن الكجك بعد معارك طاحنة أن يضرب حلفاءه بني شهاب وأن ينكّل بهم شر تنكيل، وأن يحرق قرى وادي التيم بعد أن قتل العديد من أهلها.

وفي سنة 1634 جرت المعركة الفاصلة بين عساكر الكجك وعسكر الأمير علي بن فخر الدين أمير صفد الذي كان قادمًا لإنجاد أبيه فخاض مع الجيش العثماني معركة غير متكافئة عُدةً وعددًا فأبلى فيها بلاءً عظيمًا وقتل الآلاف من جيش الكجك كما خسر معظم عسكره، ولم يبق معه سوى نفر قليل، فظل يقاتل حتى قتل.

ولما سمع فخر الدين بمصرع ولده أصيب بصدمة بالغة لأنه كان ساعده الأيمن في الملمات لبسالته ودرايته في شؤون الحرب، وضاق الخناق عليه، فتحصن في مغارة جزين فاهتدى إليه الكجك بعد أن وشى به أحدهم، واقتيد أسيرًا إلى الأستانة حيث قُتل مع أولاده الثلاثة منصور وحيدر وبلك، فخسر الشرق العربي بمصرعه رجلاً عظيمًا ناضل عن بلاده نضال الأبطال، وتحمّل في سبيلها اضطهاد الحكومة العثمانية وعمالها، وسعى بكل قواه إلى ترقية بلاده وعمرانها، ولكن من خذلوه هم من أبناء جلدته أولاً، ومن حكام بني عثمان ثانيًا.

قال المحبّي في خلاصة الأثر: «إن ابن معن بلغ مبلغًا لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة».[1] أما محمد كرد علي فقد قال فيه: «كان واسع الصدر، بعيد الغور والنظر، متسامحًا، يسير مع المدنية سير تعقّل... فهو بلا مراء مثالُ الأبطال في عصره. وكان على أتم الاستعداد للحرب، وعلى معرفة بالإدارة وطبائع الأمة، ولو لم تصرف الدولة العثمانية قوتها كلها في قتاله لعمل في الشام في القرن الحادي عشر ما عمله محمد علي الكبير في مصر في القرن الثالث عشر. ولم يكن دونه ذكاءً ومضاءً ودهاء».[2]

---

(1) خلاصة الأثر ج 3 ص 267.

(2) خطط الشام، ج 2 ص 251 ـ 266.

ويرى عيسى إسكندر المعلوف أن الأمير فخر الدين «أعظم الحكام المتأخرين حنكة، وأعرق الأمراء محتدًا، وأنبغ الشرقيين سياسة»[1].

III
هذه الطبعة

نُشرت رحلة الأمير فخر الدين إلى إيطاليا لأول مرة في مجلة الجامعة المصرية سنة 1924 (ج 2 ص 72) بعناية الأستاذ شفيق غربال[2]، ولم يتح لي الاطلاع على هذه النشرة.

ثم تلاه بعد عشر سنوات الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف حيث نشر نص الرحلة في ثنايا كتابه «تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني» معتمدًا على بعض مخطوطات تاريخ الأمير فخر الدين للخالدي الصفدي. وهي لا تخلو من خرم ونقص، قام الأستاذ المعلوف بإصلاحه.

وبعده بسنتين (1936) نُشر تاريخ الأمير فخر الدين المعني للخالدي الصفدي محققًا بعناية الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني بالاستناد إلى خمس مخطوطات لأصل مفقود من بينها المخطوطة التي استنسخها لنفسه الأستاذ المعلوف، ولم يرد نص رحلة الأمير فخر الدين في متن التاريخ المذكور بل أثبته المحققان في ملحقات الكتاب، في حين وردت بعض أخبار الرحلة موزعة على السنوات التي تناولها الخالدي في تاريخه. ونظرًا لأن النص الذي نشره الدكتور رستم وزميله يستند إلى أصول لم يتح للأستاذ المعلوف الاطلاع عليها رأيت الأخذ به دون غيره مع الإشارة إلى نقاط الاختلاف والزيادات في الهوامش، إذ اعتمدت أساسًا للرحلة ما ورد في الملحق المشار إليه، ثم أضفت إليه ما ورد في تاريخ الخالدي من الأخبار المتصلة بالرحلة خلال المدة التي قضاها الأمير في إيطاليا. وذلك من سنة 1613-

(1) من مقدمة تاريخ الأمير فخر الدين - مرجع سابق.

(2) أشار إلى ذلك الدكتور أسد رستم وزميله في هوامش تاريخ الأمير فخر الدين الخالدي الصفدي.

1618. لأن في هذه الإضافات ما يغني النص ، ويلقي الضوء على مجمل الرحلة وملابساتها .

ومما يجدر بالذكر أن الإضافات التي أدخلتها على النص المثبت في الملحق جاءت متفقة في الجملة مع النص الذي أورده المعلوف في تاريخه مع بعض الاختلاف في التفاصيل ، ولا يخلو النص الذي اعتمدته من زيادات طفيفة تستكمل بها أخبار الرحلة وتفاصيلها .

وقد أشرت إلى ذلك في هوامش الكتاب .

هذا ، ولا أزعم أنني بلغت الغاية في عملي هذا لأن من سبقوني إلى تناول هذه الرحلة بالقراءة والتعليق كان لهم فضل السبق في اكتشافها ، وقد أفدتُ من بعض التعليقات والشروح الذي أثبتها المعلوف في هوامش تاريخه ، وعزوتُ ذلك إليه ، كما أثبتّ ما لم أستسغه من القراءات والشروح التماسًا لما حسبته أقرب إلى الصواب .

أما ما يتعلق بكاتب هذا النص ، فقد شكّ الدكتور رستم وزميله في نسبته إلى الخالدي لأنه من وجهة نظره مغاير لفاتحة الكتاب من حيث صياغته وإنشاؤه ، كما أن الأب بولس قرأ لي في كتابه «فخر الدين المعني الثاني» حاكم لبنان ، رجّح أن الأمير فخر الدين أو الشيخ خاطر الخازن أحد مرافقيه قد أملى تفاصيل هذه الرحلة على الخالدي ، فألحقها بتاريخه لوقوعها ضمن حوادث الفترة التي قصر عليها كتابه والواقعة بين عامي (1612– 1623) ولا نرى في القولين ما يخالف الصواب ، فالأخبار العامة عن الرحلة وظروفها وما اكتنفها من ملابسات ومراسلات يمكن عزوها إلى الخالدي . أما ما يتعلق بمشاهدات الأمير في ربوع إيطاليا ومدنها وموانئها والجزر التي زارها ، فلا بد له من أصل مدوَّن من قبل الأمير أو من بعض مرافقيه يتعرض فيه لوصف المشاهدات والتفاصيل الواردة في نص الرحلة فما كان من الخالدي إلا أن ألحقه بتاريخه ملتزمًا بالصياغة التي كُتب بها وذلك من باب الأمانة في النقل لا غير ، بحيث تكون أحداث هذه الرحلة ووقائعها منسجمة مع السياق العام للفترة المشار إليها من تاريخ الأمير فخر الدين .

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه هو أن سذاجة التعبير وعفوية الأداء وبساطته تذكرنا ببعض رسائل الأمير الشخصية التي سنورد نماذج منها في الملحق .

إننا - رغم ما سبقت الإشارة إليه عن كاتب هذه الرحلة - أمام نص من أقدم ما دُوِّن عن أوربا في عصورها الحديثة ، إن لم يكن أقدمها على الإطلاق ، كما أن ملاحظات الأمير وانطباعاته عما استحدثه الأوربيون تأتي في سياق مشروع نهضوي شامل كان الأمير فخر الدين قد شرع في تنفيذه خلال العقد الأول من القرن السابع عشر ، وسخّر لإنجاحه المال والرجال ولكن الظروف المحيطة به خذلته ، وبسقوط هذا المشروع خسر الشرق العربي نحو مئتي عام من مواكبة الحداثة والإسهام في صنعها .

IV

المؤلف والنص

لا بدّ لقارئ هذه الرحلة من أن يضع المعايير البلاغية واللغوية جانبًا لأنه أمام نص مكتوب باللهجة المحكية في بلاد الشام قبل أربعة قرون ، فهو نص طريف شكلاً ومحتوى ، لأنه يعكس صورة العصر الذي كتب فيه ، وهذا ما نبحث عنه بشغف في آثار الأسلاف : خطابهم اليومي ، لغتهم ومصطلحاتهم التي يتداولونها ، أدواتهم ، أشياؤهم البسيطة ، ملابسهم ، طرائق عيشهم ، والفرق بين الدارج من كلامهم والدارج من كلامنا ، ومدى قربهم أو بعدهم عن اللغة التي نقرؤها في مؤلفات زمانهم ، وطريقتهم في التعبير عن المستجدات ، وتعريبهم للدخيل من الأسماء ، إلى غير ذلك من الأمور التي تثير فضولنا وتجعلنا أقرب إلى فهمهم ومعرفتهم .

ولكن من حقنا أن نتساءل هل استطاع كاتب النص أن يُفضي إلينا بما نتوخاه في النصوص المكتوبة بعناية؟ هذا ما سيجيب عنه النص نفسه .

ولكننا مع ذلك سوف نقوم باستنطاقه ، والإصغاء إلى ما يقوله عن تلك البلاد القاصية والمغايرة في آن معًا .

كان الأمير فخر الدين قد جعل من ميناء صيدا الفينيقي العريق محطة من المحاط المهمة التي تؤمُّها السفن القادمة من مختلف الجهات ولا سيما بلدان أوربا حيث تفرغ حمولتها من البضائع لتعود إلى بلادها محملة بالمنتوجات الرائجة في أسواق تلك البلدان .

وربما لم يخطر في بال المعني ذات يوم أنه سوف يكون لاجئًا سياسيًا يطلب الحماية في تسكانا أو سواها من بلدان أوربا ؛ ولكنها ضرورات اللحظة ومقتضياتها! فأهل الحل والعقد الذين اعتاد أن يستشيرهم الأمير في الملمات أظهروا شيئًا من التراخي في مواجهة الفيالق العثمانية التي ملأت عليهم البر والبحر ، فلا بد إذًا من مخرج .

ومع أن دولة تسكانا التي اقترحها الحاج كيوان ملجأ له ولسيده هي دولة صديقة تربط المعني بها معاهدات تجارية وحربية ، فإنه لم يسلم بهذا الاقتراح العاجل الذي يفتقر إلى الحنكة السياسية والدراية بالمصالح الدولية التي قد تلعب دورًا سلبيًا بالنسبة للأمير ؛ لأن قناصل الدول الغربية في إسلامبول يظهرون الكثير من الحرص على تحسين علاقاتهم بالدولة العثمانية لخدمة مصالحهم ، وربما كان هذا الحرص أقوى من رغبتهم في تمتين علاقاتهم بالإمارة المعنية ، وذلك أمر مسوَّغ في موازين الدول وحساباتها! لذلك رأيناه يُقدم على الرحيل مكرهًا أو مترددًا! ولكن التوجه إلى تسكانا ربما كان في نهاية الأمر من أقل الخيارات خطرًا ؛ فكان ما كان ووصل الأمير فخر الدين إلى تسكانا ، واستقبل هناك استقبالاً لائقًا بعد التأكد من هويته وسلامته من الأمراض المعدية . إذ إن الدخول إلى تلك البلاد يخضع لتعليمات محددة لا يُستثنى منها أحد!

ففي الفورنا (ليفورنو) أخذت صورة الآخر تكشف عن ملامحها للأمير ، تلك الصورة التي طالما تخيلها من مرويات المسافرين والتجار ، ولكنها الآن تمثل لعينيه حيةً بكل تفاصيلها ، فالقوم مختلفون في أمور كثيرة ، ولهم عاداتهم في السلام وإلقاء التحية ، واستقبال الضيوف خلافًا لما هو متبع في الشرق ، كما أن لهم تقاليدهم في الأعياد والمواسم حيث يقيمون الحفلات التنكرية والمساخر ، واللعب والسباق واختبارات القوة لترويض الأبدان .

ومن ألعابهم وتسلياتهم ما يستحق التوقف عنده وإمعان النظر فيه كتلك الألعاب التي تجري في بيت كبير مجهز بالأدوات والوسائل المناسبة لإيهام المشاهد بأنه يرى أمام عينيه مشهدًا حيًا ، كأن يرى بحرًا تتلاطم أمواجه ، وأفقًا حمرته كحمرة الشفق يخطر فيه أناس يمثلون دور الملائكة ، والبحر مصنوع من قماش أزرق ولوالب خشبية

دوارة ، ويمخر عبابه زورق يسير على عجلات وعلى متنه فتيةٌ مُرْد من أحسن الناس ، يرقصون ويتحاورون . . .! أليس هذا الوصف ينطبق على ما سميناه فيما بعد بالمسرح أو المرسح؟! وأحسب أن فخر الدين أقدم من وصفه من العرب في عصر النهضة الأوربي ، وذلك قبل أن يصفه الطهطاوي بنحو مئتي عام ونيف .

أما الرقص عندهم فيشترك فيه الرجال والنساء معًا ، وكلٌ يرقص مع ندّه : «امرأة الدوكا مع الدوكا» وذلك بحسب مراتبهم الاجتماعية . وفي بلادهم لا تحتجب النساء عن الرجال في داخل البيوت وخارجها . فالمرأة تشارك الرجال في لهوهم وجدّهم .

ولم يقصروا اهتمامهم على الحاضر ، بل أولوا الماضي الكثير من عنايتهم ؛ فأقاموا المتاحف للاحتفاظ بآثار القدماء وصورهم ، وصوّروا الوقائع والحروب القديمة والحوادث التاريخية المهمة ، وأقاموا المتاحف للأسلحة وآلات الحصار بأنواعها . ومثلما احتفوا بالتاريخ وشؤونه أعدُّوا متحفًا للجغرافية حيث صوّروا كواكب المجموعة الشمسية مجسّمة بالنحاس ، وجعلوها متحركة على النحو الذي تجري فيه في الفضاء ، كما صوّروا الأقاليم السبعة ببحارها وجزائرها ، ومدنها .

ومما يلفت النظر في تلك البلاد ما أقاموه من المنشآت والمباني العجيبة كالجسور والقناطر والأسوار والمنارات والقصور والكنائس والحدائق وغير ذلك من الأشياء التي تدل على رقيهم ونزوعهم إلى الاستمتاع بالحياة .

ومن مستحدثاتهم دار السكة (الضرب خانه) حيث تُسكّ العملات الفضية والذهبية ، والمطبعة وآلاتها ، وطريقة عملها ، والمستشفيات ونظامها ، وما تقدمه للمرضى من خدمات مجانية ، واحتضان الأطفال غير الشرعيين والمشردين ، وأبناء الأسر الفقيرة ، والقيام بتربيتهم وتعليمهم وتنشئتهم في ديارات خاصة بهم وتأهيلهم للانخراط في الحياة العامة .

ومن أهم ما استحدثوه البنوك لحفظ الأموال وصيانتها وفق نظام محدد ، وما يترتب على إيداع الأموال من فوائد ، وما يضمن حقوق الزبائن من صكوك ووثائق من جهة وحقوق البنك والقائمين عليه من جهة ثانية .

إن اهتمام الأمير فخر الدين كرجل دولة بالإدارة وشؤونها يبدو واضحًا من خلال

التفاته إلى كل ما يتعلق بذلك من تنظيم المدن وإعمارها ، والإنفاق على المرافق العامة ، والمصادر المعتمدة للتمويل ، يُضاف إلى ذلك ما يتعلق بأمن الناس وسلامتهم ، وقانون العقوبات ، وشروط نقل السلاح ، وقوانين الحرب وما يُلزم الغالب والمغلوب من أعراف ومواثيق ، فلا يحق للغالب المساس بالسكان الآمنين ، ولا يجوز له إلحاق الأذى بمقتنياتهم ومزروعاتهم وأمنهم ؛ لأنهم يحتكمون إلى قوانين وأعراف ضابطة لشؤون العمران والإدارة بأنواعها .

ومما يثير الانتباه التفات الأمير فخر الدين إلى شؤون الحياة اليومية الصغيرة ، كطريقتهم في غسل الثياب وتنظيفها ، والمواد المستخدمة في ذلك ، وكيفية قطافهم للزيتون ، وتربية الأسماك وحفظها ، والصيد وأنواعه .

ومما استوقفه في تلك البلاد السجون ونظامها ، ومعاملة الأسرى والمجرمين ، ونظام الجندية والتدريب على السلاح إلى غير ذلك من الأمور المتعلقة بأمن الدول وحمايتها وربما أثار انتباه القارئ تلك الإشارات المتعلقة بتغير موقف «الغران دوكا» حاكم تسكانا من ضيفه ، واستياؤه أحيانًا من تقديم نفقات الضيافة التي أقرها له منذ قدومه ، على الرغم من العلاقة التاريخية الطيبة التي تربطه به وبأبيه من قبله ، ولطالما أغدق عليهما الأمير من هداياه وألطافه ، ويسّر لأتباعهما الحماية ، كما مهّد لهم السبل للمتاجرة في بلاده بأمان وحرية!

فلعل ذلك عائد إلى مواقف المحيطين بحاكم تسكانا من الأمير لأن وجوده ونفقاته تشكل عبئًا على مالية الدولة دون طائل . لذا رأيناه يسارع إلى قبول دعوة سلطان إسبانيا للانتقال إلى صقلية ليحل ضيفًا على حاكم مسينا الذي رحّب بضيفه أجمل ترحيب ، وأعدّ له مسكنًا لائقًا ، ورتب له نفقات كافية له ولحاشيته . وبقي الأمير في ضيافته نحو ثلاث سنوات ، ولما تقرر نقل حاكم مسينا إلى نابل التي كانت تابعة لسلطان إسبانيا اصطحبه إلى مقرّه الجديد ، وأكرم مثواه ، ولكن الأمير فوجئ ذات يوم بوفد من رجال الحاكم جاء إلى الأمير في مقره لمساءلته عن اتخاذه جامعًا للصلاة ، وممارسة الشعائر الإسلامية ؛ مما يدل على عدم ارتياحهم لذلك . كما بعث إليه عرضًا صريحًا لاعتناق النصرانية ، وفي حال موافقته على ذلك سوف يُعين حاكمًا على بلاد أكبر من تلك التي أقره عليها سلطان المسلمين! ولكن الأمير أجاب دوق نابلي

عن طريق الوسيط بلباقة السياسي المحنك وحزم القائد الذي لا يقبل المساومة ، بالاعتذار عن تلبية طلب الدوق ، حيث قال للوسيط : «روح ردّ الجواب على الدوكا ، وتشكّر من سلطان إسبانيا ومنه ، وقول له الأمير قال : ما جينا إلى هذه البلاد لا كرامة دين ، ولا كرامة حكم ، بل لما جاء علينا عسكر ثقيل جينا احتمينا عندكم ، واحميتوا راسه ، وراعيتوه ؛ ولكم بذلك الفضل والجميل والمنّه . إن أردتم هو قاعد عندكم بتوابعه على حاله ، وإن أرسلتوه إلى بلاده فهو المراد ؛ لأن له أهل وتوابع وبلاد[1] .

وأخيرًا : فإن ما قدمناه بين يدي هذه الرحلة لا يغني القارئ عن النظر فيها ، والاستمتاع بتتبع تفاصيلها ، وبما تميّزت به من عفوية في وصف المشاهد دونما تكلف أو افتعال ، مع الحرص على الإبانة والوضوح على الرغم من ركاكة اللغة التي كتبت بها ، ولكيلا نذهب بعيدًا في التحليل والتقويم ، فإننا نضع هذا الأثر الطريف بين أيدي القراء ، ونحن على ثقة بأنه يمتلك من المقومات ما يجعله قادرًا على الإفصاح عن محتواه دون مواربة .

قاسم وهب

في 21 / 11 / 2004

---

(1) انظر نص الرحلة .



ديباجة المؤلف

V
مسار الرحلة

بدأ الأمير فخر الدين رحلته بحرًا من ميناء صيدا في الثاني من شهر أيلول (سبتمبر) سنة 1913 متوجهًا إلى تسكانا فمر بجزيرة كنديا ومنها أبحر إلى صقلية ، ثم توجه منها إلى جزيرة سردينيا فجزيرة قرصقا (كورسيكا) إلى أن رست السفينة في مينا الكرنة (ليفورنو) ميناء دولة تسكانيا في 25 تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1613. ومن الكرنه توجه إلى افرنسيا (فلورنسا) لمقابلة الغران دوكا فمر بمدينة بيزا فمرجانة[1] . ومن افرنسيا عاد إلى الكرنة لاصطحاب أسرته والإقامة في فلورنسا تحت رعاية الغران دوكا . وبدعوة من سلطان إسبانيا انتقل من فلورنسا إلى مسينا مرورًا بـ الكرنة (ليفورنو) ومن مسينا قام بزيارة إلى بلاده ، فرست سفينته في الدامور من ساحل لبنان ولم يتمكن من النزول إلى البر . ولكنه التقى بأهله وذويه وأعيان بلاده على متن السفينة ثم قفل راجعًا إلى صقلية فمرّ برأس الخنزير على الساحل

(1) ذكر الخوري بولس قرأ لي أن الأمير مر في طريقه من ليفورنو إلى فلورنسا بمدينة بيزا ، ثم سان ريو ، وأميروجيانا وذلك استناداً إلى الوثائق المديشية .

السوري ومنها إلى بر القرمان (كرمان) من الأراضي التركية ، ثم أبحر إلى جزيرة زنتو (زنته) من ساحل اليونان الغربي ، ومنها إلى جزيرة الجفلونية (كفلونيا) ثم أبحرت سفينته إلى جزيرة مالطه ليحل ضيفاً على حاكمها ، ثم توجه منها إلى جزيرة صقلية حيث يقيم مضيفه فيها . فقام بزيارة بعض مدن الجزيرة وموانئها مثل باليرمو ومازورة وبلد الكريك ، ثم عاد إلى باليرمو لينتقل منها بمعية الدوق إلى نابلي ليقيم نحو سنتين ومنها عاد أدراجه إلى بلاده مروراً بمسينا فميناء عكا حيث انتهت رحلة العودة بعد مضي خمس سنوات وشهرين على خروجه من البلاد .



VI

مسار الرحلة

الانطلاق في 2 أيلول (سبتمبر) سنة 1613

- صيدا
- كنديا (قندية)
- صقلية
- سردينيا
- كورسكا (قرصقا)

ليفورنو (الكرنة = اليفورنا)

- بيزا (بوزا)
- مرجانه (امبروجيانا)
- افرنسيا (فلورنسا)
- ليفورنو (اليفورنا)
- مسينا (صقلية)

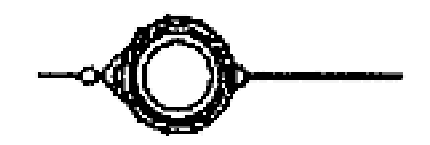
زيارة البلاد والعودة إلى صقلية سنة 1615

- مسينا
- الدامور
- رأس الخنزير
- بر القرمان (كرمان) تركيا
- زنته (زانتوا)
- كفلونية (الجفلونية)
- مالطة
- صقلية [بليرمو - مازورة - بلد الكريك - بليرمو]
- نابلي (نابل)

[العودة في منتصف شهر رمضان سنة 1027هـ/ 1617م]

- نابلي
- مسينا
- عكا - في 9 شوال 1027هـ / 1618م

نص الرحلة



مشاورات قبل الانطلاق

[قدم إلى أسكلة[1] صيدا ثلاث غلايين[2] كبار، منهم غليونان فرنساويان، والآخر غليون فلمنك، وفيهم ناس تجار، فجمع الأمير القرايب، وهم: حضرة أخيه الأمير يونس، والأمير منذر، والأمير ناصر الدين من إمارة الشحّار[3] وجميع مشايخ الأربع بلدان، وغيرهم من الأباعد والأجانب على نهر الدامور، فرأى من الجميع قلة تصلّب، وكثرة تراخي، وكبرت عليهم الأمور من تزايد العدو، وكثرة المدَد من العساكر السايرة إليهم؛ فشار عليه الحاج كيوان[4] بالنزول في البحر، والحاج كيوان

---

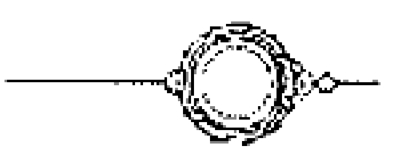
(1) الأسكلة: كلمة إيطالية الأصل تعني الميناء.

(2) الغلايين: مفردها غليون Galion وهو سفينة مسلحة لشحن البضائع.

(3) الأمير منذر والأمير ناصر الدين من الأمراء التنوخيين أخوال الأمير فخر الدين المعني. والشحار من مناطق لبنان مركزه عبيه.

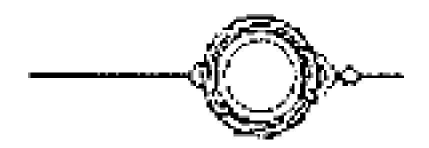
(4) هو كيوان بن عبد الله أحد كبراء أجناد الشام، كان في الأصل مملوكاً لرضوان باشا نائب غزة. اتخذه الأمير فخر الدين مدبراً له (كتخذا أو كاخية) ساعد المعني في حروبه ضد الدولة العثمانية. كان عنيداً متصلباً في رأيه. رافق المعني في رحلته إلى أوربا. مات مقتولاً بيد سيده بسبب عناده وتطاوله، وذلك سنة 1623 م.

المذكور من بلوكباشيَّة الشام ، وبقا يتردد إلى عنده ، ويلتجي إليه ؛ لأن بقا بينه وبين عسكر الشام بغض ، ومتحسِّب منهم ، وكان عند الحاج كيوان يهودي يسمى إسحاق ، فأرسله إلى قنصل صيدا ، وتكلم معه أنه يستكري[1] المركب المتوجه إلى بلادهم ، وعملوا إلى ريِّس المركب كِري[2] مركبه خمسماية غرش ، لأنه كان واسق[3] ، وتخلَّص ، ومتوجِّه إلى بلاده .



الأمير يتردد في ركوب البحر

وجا الحاج كيوان وأحكا لحضرة الأمير فخر الدين بذلك ؛ فقال له : «ما لنا بهذا التوجه خلاص ؛ لأن قناصل فرنسا في إسلامبول وغيرها تحت أيدي الحكام» . فقال الحاج كيوان : إنكان ما بتروح أنت أنا بروح ، وأقسم على الأمير أن يرسل يجيب له [جواره و أسبابه[4]] التي كان وضعهم في شقيف نيحا ؛ فأرسل جاب له إياهم في الليل إلى مزار قبة أبو الريش على باب صيدا .



الأمير يوافق على الارتحال ويسند القيادة إلى أخيه

وفي الحال الحاج كيوان نزَّل عياله في القارب للمركب ، وشار على حضرة الأمير أن يتوجه معه . فمن ضيق الوقت وافقه على ذلك ، ونزَّل عياله ، وتوكل الأمير على الله تعالى ، ورسم لحضرة أخيه الأمير يونس بالسكنى في سراياه الكاينه بدير القمر

---

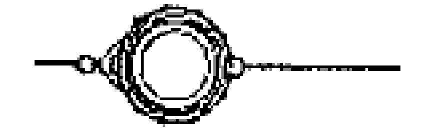
(1) يستكري : يستأجر .

(2) الكري : عامية ، فصيحها الكراء وهو الأجرة .

(3) الوسق : الحمل . والمقصود : كان المركب محملاً بالبضائع ، ثم أفرغت حمولته .

(4) في النص الذي أورده عيسى اسكندر المعلوف في تاريخ الأمير فخر الدين : أسباته والأسبات جمع سبت . وهي فارسية بمعنى السل الكبير . وجواريه بدلاً من جواره وهو الأصح .

بجميع الخياله السكمانية[1] الذين كانوا مع حضرته ، بعد أن أوهب لكل واحد منهم اثنين ذهب ، وجعل على الطايفه محمد يازجي البلوكباشي سردارًا ، ووضع أهل بيته : بنت الأمير علي ابن سيفا[2] في قلعة شقيف نيحا ، ووقف عليهم برسم خدمتهم مملوكه مصلي آغا مع بلوكباشي بخمسين نفر ، وعزم على النزول في البحر .



استئجار سفن الرحلة

فتكلم قنصل تجار الفرنساوية الذي بصيدا مع قبودان[3] غليون الفرانسة بالنزول فيه ؛ فاستأجره منه بخمس آلاف ذهب ، وتوجه معهم ، ونزل معه أيضًا الحاج كيوان بجواريه ، فما طاب للحاج كيوان أن يكونوا كلهم في مركب واحد ؛ فاستأجر له الأمير مركبًا آخر بخمسة آلاف ذهب ، ودفعها من ماله ، فانتقل إليه الحاج كيوان بعياله .

فلما رأى قبودان مركب الفلمنك[4] استيجارهم المركب الثاني الفرنساوي بهذا المبلغ مع أنه أصغر من مركبه ، وأقل عُدّة وسلاحًا وحركة في الأسفار ؛ طلب أن يستأجروا منه مركبه وإلا يقاتلهم ، ويصلي معهم كون[5] ؛ فلزم أن الأمير أعطاه خمس آلاف ذهب ثانية ونزل فيه بنفسه مع شرذمه من جماعته الرجال ستة عشر نفر ، وترك أهل بيته وأخاها الحاج علي الظافري[6] في الغليون الأول ، وجعل على

---

(1) ويقال : السكبان وهم جنود غير منظمين ، من فلاحي الأناضول وبدوها ، مهروا في استخدام الأسلحة النارية ، وهم يبحثون عمن يستأجرهم .

(2) آل سيفا من الأمراء الأكراد ينتسبون إلى المقدم جمال الدين الملقب بسيفا ومقرهم طرابلس الشام . وكان الأمير فخر الدين المعني الثاني قد تزوج بابنة علي بن سيفا .

(3) القبطان أو الربان .

(4) الفلمنك : الهولنديون .

(5) يصلي معهم كون : يثير معهم حرباً .

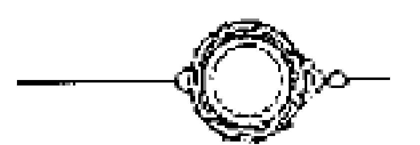
(6) الحاج علي الظافري أخو زوجته خاصكية التي رافقته في رحلته إلى إيطاليا .

الله المعول .

وكان سابقا صار من القنصل المسمى كردانا[1] خطا ، وأخذ منه حضرة الأمير جريمه[2] على يد الحاج كيوان ؛ فطلبها في محل هذه المضايقة ، فأعطاه الأمير خمس آلاف ذهب ثالثة ، وما بقا مع الأمير سوى خمسة وعشرين ألف ذهب لا غير . هذا الذي كانت تملكه يده يومئذ .

وفي ذلك الحين جا إلى الغليون الشيخ يوسف ابن المسلماني حاكم اغزير ، وبلاد كسروان ، فأعطاه ثلاثماية ذهبًا أمانه ليوصلها إلى الطايفة والبلوكبا شيّة الذين هم في اغزير ، فحصلت منه الخيانة ، وطمعت نفسه عليها ، ولم يوصلها إليهم .

وكان مراد الأمير أن تأخذ السكمانية هذه الدراهم ويروحوا هم والشيخ يوسف المذكور إلى عند رفقايهم بدير القمر ، وينزلوا عليهم ، فتوجّهت الطايفة إلى عند رفقايهم ، وأخلوا حارة اغزير ، ولم يعطيهم من المال ولا القطمير!



الانطلاق

وسافر من أسكلة صيدا الأمير فخر الدين في الثلاث غلايين في غرة شعبان سنة اثنين وعشرين وألف[3]]

ونريد نذكر ما صدر عليهم في سفرهم بالبحر ، ومما رأوا من العجايب في بلاد

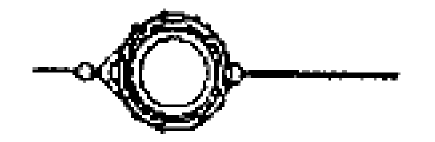
---

(1) قنصل صيدا .

(2) بمعنى غرامة .

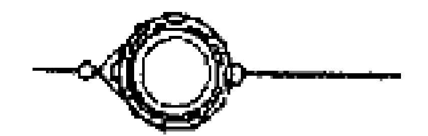
(3) الموافقة لسنة 1613 ميلادية . أخذنا القطعة التي بين المعقوفتين والتي تبدأ من قوله : قدم إلى أسكلة صيدا . . . إلى قوله اثنين وعشرين وألف ، من تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني للخالدي الصفدي من صفحة 17 ـ 19 وهذه القطعة لم ترد في الملحق الذي أثبته الدكتور أسد رستم في نهاية التاريخ المذكور ، في حين إن عيسى اسكندر المعلوف أوردها كما أثبتناها في مقدمة الرحلة . أما القسم التالي لهذه القطعة فهو ما ورد في الملحق المشار إليه آنفاً . وقد أدخلنا عليه بعض الفقر من تاريخ الخالدي لأن فيها من الوقائع ما يغني النص ويكمله .

النصارى مفصلاً .



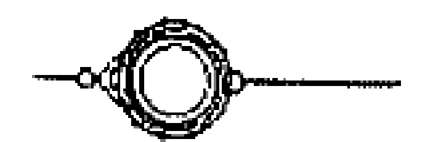
في مواجهة القرصان

وذكرنا أن حضرة الأمير نزل في مركب الفلمنك ، وهو متوجه في المواسطه . واجه غليونين قرصان[1] من مالطة ، فقصدوا غليون الفلمنك ، وتحاكوا مع الرئيس وقالوا له : من أين جاي؟ فقال لهم : من بلاد الشرق ، رايحين إلى بلادنا . فقالوا : أيش معك؟ قال لهم : ما معي غير بارود ورصاص ، والقتال! فتركوه ، وتوجهوا في طريقهم .



الريح تفرق بين مركب الأمير والمركبين الآخرين

وأما المركبين الفرنسيس الذي فيهم الاعيال ، والحاج علي الظافري ، والحاج كيوان وجواريه وجماعته ، افرق[2] الريح بينهم وبين مركب الفلمنك المذكور .



وصول مركب الأمير إلى أسكلة الفورنا

وأما مركب الفلمنك جا طريقه بين جزيرة صقلية ، وبلاد الغرب ، وعدًا[3] على جزيرة سردينا ، وقرصقا[4] ، ووصل بالسلامة إلى أسكلة الفورنا[5] من بلاد الغران

---

(1) القرصان : لص البحر .

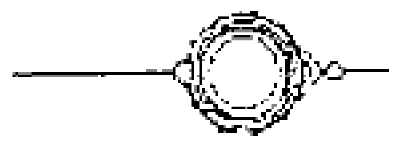
(2) أفرق بمعنى فرّق .

(3) عدا : اجتاز .

(4) هي جزيرة كورسيكا من جزر البحر المتوسط .

(5) ترد تارة الفورنا بالفاء وأخرى بالغين ، وتسمى الآن ليفورتو Livorno وهي مدينة إيطالية كانت تابعة لدولة تسكانا .

دوكا[1] ، وارما المرسة في يوم قاسم كون[2] ، وهو يوم خمسة وعشرين من شهر تشرين أول . ومدة سفرهم من أسكلة صيدا إلى أسكلة الفورنا ثلاثة وخمسين يومًا .



إجراءات الدخول إلى الميناء

وطلع إليهم ناس من أسكلة الفورنا في قارب فيه بيرق صغير ، عليه بنديرة[3] الدوكا ، وفيه يازجية[4] يعرفوا بالتركي والعربي ، وأتوا إلى فوق ريح المركب من خوفهم من هوا المركب وريحة الطاعون ، وسألوا : من أين جايين؟ وإلى أين رايحين؟ وما بضاعتكم؟ فأعطوهم الجواب على عادتهم ، وقالوا لهم : ايش هذه المسلمين الذي معكم؟ فحاكاهم حضرة الأمير فخر الدين بما صار عليه ، وإنه جا يلتجي إليهم إلى وقت أن يفرج الله ، وقال لهم : مرادي أنزل إلى البر ، لأنه كان زعل في المركب من حسابات وأحوال[5] شتا ، منها لما فرغت ذخيرتهم[6] ، وما كان لهم يد تطول إلى الذخيرة الذي عند أعياله ، ولا كان لهم علم أن المركب يفرق عنهم ، وطلبوا من الريّس يعطيهم ذخيرة ؛ فشكا لهم من حساب البحر ، وأعطاهم لكل نفر خمس أكعاب بقصماط[7] على سبع أيام ، ومقدار نصف رطل أرز للجميع .

---

(1) الغران دوكا : الدوق العظيم Grand Duca وهو قزما الثاني من أسرة الطبيب سلفسترس الذي أسس امارتهم ، فحكموا من سنة 1314 ـ 1743. والأسرة من أصل يوناني .

(2) كذا وردت في تاريخ الخالدي ، وتاريخ المعلوف وقرأها شفيق غربال في مجلة الجامعة المصرية ج 2 ص 72 : قاتم اللون وهذا مستبعد ، ولعل المقصود قازما كران ، وقازما اسم الدوكا فيكون يوم العظيم قازما .

(3) البيرق كلمة تركية تعني الراية ، والبنديرة : إيطالية وهي العلم أو الراية Bandira (عن المعلوف) .

(4) البازجي كلمة تركية تعني الكاتب ، وهي هنا بمعنى الترجمان (المعلوف) .

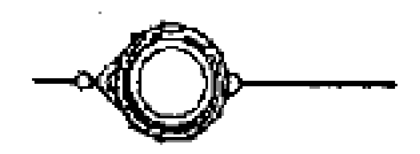
(5) في تاريخ المعلوف : لأني زعلت من البحر من حسابات وأموال ، والآن فرغت ذخيرتهم . . . .

(6) الذخيرة هنا بمعنى الزاد .

(7) البقسماط : نوع من الخبز يجفف ويعد للسفر .

وبقوا جماعة الأمير يشتروا من البحرية كل كعب يربع غرش ،[1] وعادوا اشتروه بنصف غرش حتى سددوا فيه حالهم حتى وصلوا إلى الأسكلة المذكورة .

فلما رجع القارب إلى الفورنا ، واعلم حاكم البلد أمرهم أن يعاودوا ، ويعطوا جواب إلى حضرة الأمير ، وينزلوه . فلما أراد النزول معهم قالوا له : انزل في قارب مركب الفلمنك خوفًا من رايحة الطاعون ؛ فنزل وأخذ معه من خَدَمته عبده المربّى عنده مسرور آغا فقط . فلما وصلوا إلى البر ، قالوا : ما نحن مأمورين ننزِّل إلا الأمير وحده ؛ فردُّوا مسرور آغا ، والحوايج[2] إلى المركب من غير أن أحدًا يقرّب لعندهم . وَدَخّلوا إلى بيت ، وشعّلوا بخورًا وحشايس لها دخان وروايح لمنع الرايحت ،[3] وقلّعوا الأمير جميع الحوايج[4] الذين كانوا عليه ، وألبسوه غيرها ، وردّوا جميع الحوايج الذين كانوا عليه مع مسرور آغا للمركب . وكل هذا الحرص لأجل رايحة الطاعون على عادتهم .



إجراءات الاستقبال

وجا حاكم البلد وأهلها ، ومشوا قُدّام الأمير إلى منزل الدوكا ، لأنه كان غايب في مدينة الكبيره افرنسيا[5] . وجا حاكم البلد في التهنّي[6] ، وقالوا : نحن مرادنا نعلم الدوكا ، ومرادنا منك كلام على الحقيقة ، صحيح انت ابن معن؟ قال : نعم . فأرسلوا

---

(1) في تاريخ المعلوف : كل كعب بعشر مصاري ، والمصرية هي البارة المضروبة بمصر ، وكل أربعين بارة أو مصرية غرش (المعلوف) .

(2) بمعنى الأمتعة .

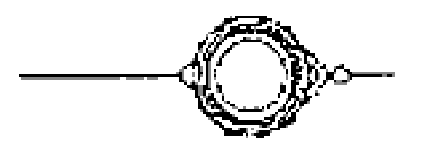
(3) الرائحة ، وفي تاريخ المعلوف : لمنع رايحة الطاعون .

(4) أي نزعوا عنه ثيابه .

(5) هي مدينة فيرنسة Firenze وهي الآن فلورنسه ، وكانت عاصمة دولة توسكانا . وهي مهد النهضة العلمية في أوربا .

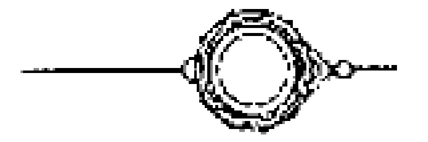
(6) أي التهنئة .

أعلموا الدوكا بذلك ؛ فعيَّن وزيره الكبير المسمى لورنسيوا[1] أنه يأخذ الأمير إلى عنده .



الأمير يطلب إنزال جماعته من المركب

فقال لهم : مرادنا أن تنزلوا لنا جماعتنا الذين في المركب . فقالوا : عادتنا إذا جا مركب ينزّلوا جماعته وبضاعته إلى الدار التي برّات[2] المدينة . يقعدوا أربعين يومًا ما حد يختلط معهم ، حتى إذا أحد باعهم مأكله[3] أو فاكهة يحطوها بموضع بعيد عنهم ، ثم يجوا ياخذوها ، ويحطّوا حقها[4] في وعا يكون فيه خل . ولكن نحن تحققنا منك ، وصدّقناك أن بلادكم ما بها رايحت طاعون ، ولأجل خاطرك نعطي جماعتك إجازه يطلعوا إلى عندنا ، فطلع جماعت الأمير لعنده[5] .



وصول المركبين الآخرين إلى الفورنا

وحضرة الأمير بقا في همّ وأفكار من جهة المركبين الذين افترقوا عنه ، الذين فيهم اعياله والحاج كيوان . فمن حكمة الله تعالى وصلوا إلى أسكلة الفورنا بالسلامة ، وأمروا بطلوعهم إلى عند الأمير .

---

(1) في تاريخ المعلوف : فأرسل عين وزيره الكبير اسمه لارنسيه أن يأخذ . . .

(2) أي خارج المدينة .

(3) بمعنى طعام وفي المعلوف مأكل .

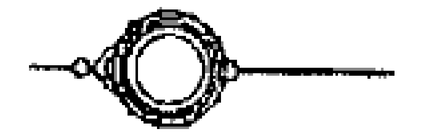
(4) أي ثمنها ، وفي تاريخ المعلوف : يحطوها بموضع بعيد ويرشوا فوقها خل لأجل الرايحة ولكن نحن تحققنا منك . . . . إلخ .

(5) في تاريخ المعلوف : فأطلعوهم إلى عند الأمير .

ماجرى للمركبين في البحر

سايلوهم عما صار فأعلموهم وهم جايين لاقاهم ثلاث غلايين قرصان في المواصطة ؛ فأرسلوا إليهم الفرقاطا[1] ، فنظروا حصان الأمير الذي حاططه معهم ، فأعلموا مراكب القرصان أن في هذا المركبين الفرنسيس مسلمين ، فعملوا آلة الحرب ، ومشوا عليهم ؛ فأيقن الحاج كيوان وعيال الأمير في الأخذ[2] . فمن حكمة الله جا في ذلك الوقت فرتينه[3] وريح عظيم ، فطرد القرصان ، ولم يلحقوهم .

وذكروا أنهم مروا على بوغاز[4] مسّينا وقلابرا ، وبقي عندهم ضيق كلي من افتراقهم ، وصار انشراح وطيبان خاطر .



توجه الأمير إلى مدينة بيزا وما شاهده فيها

وبعد ذلك توجه[5] حضرة الأمير والحاج كيوان وبعض جماعتهم ، وتوجهوا مع وزير الدوكا المذكور ، وباقي جماعتهم والعيال أبقوهم في ليفورنا ، وتوجهوا منها إلى مدينة بوزا[6] ، وهي مدينة كبيرة عظيمة لها صور ، ونهر شاقّ المدينة ، ويطلع فيه الشخاتير[7] والقوارب إلى مدينة فرنسيا . ومن النهر المذكور خليج إلى اليفورنا أخذه أبو الدوكا لأجل الشخاتير فيه إلى مدينة بيزا .

---

(1) السفينة (إيطالية) .

(2) الأسر . وفي تاريخ المعلوف : فولفوا لهم آلة الحرب ومشوا عليهم .... إلخ .

(3) الفرتينة ، والفرتونة : شدة هبوب الريح ، واضطراب البحر (إيطالية) .

(4) مضيق .

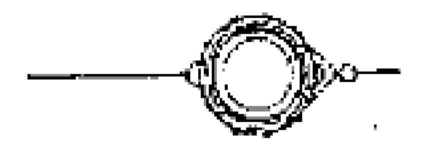
(5) في تاريخ المعلوف : تواجه .

(6) بيزا أو بوزا من مدن توسكانا .

(7) الشخاتير : مفردها شختور أو شختورة وهي سفينة صغيرة .

وفي وسط المدينة المذكورة ثلاث جسور عظام ، وفي هذه المدينة المادنة[1] العوجا الذي معلقين فيها النواقيس لأجل معرفة الساعات ، ولإحضار الصلوات ، ويسمونها : «ماريّا» . وانعواج هذه المادنة أمر عجيب من صناعة البنايين معمولة مربعة ، وجميع الأربع حيطان رخام . مدماك[2] رخام أبيض ، ومدماك رخام أسود . وإذا رميت حصوة على مساحة حيطها من محل ضرب الناقوس ، ونزلت إلى تحت ، توجد الحصوة طبّت[3] بعيد عن حيطها الذي قرب الأرض خمسة عشر قدمًا ؛ فيكون انعواج هذه المادنة خمسة عشر قدمًا ، ولم خالل بها شيء من بنيانها أبدًا!

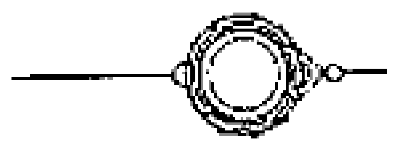
وقالوا إن في مدينة البندقية مادنة أخرى عوجا متل المذكورة .





النزول في مرجانه

ورحلوا من بيزا ، ونزلوا في منزلة مرجانه[4] ، دار عظيمة منزلة للدوكا ، وفيها مياه وبساتين ، ومنها نزلوا منزلة في قرب فرنسيا لأن الأمير طلب منهم أن يدخل في الليل وقت العشا ؛ فأجابوه إلى ذلك .



عم الدوكا يستقبل الأمير في مدينة فرنسيا (فلورنسه)

ولما الأمير افرنسيا عم الدوكا لاقا الأمير والأكابر ، وعم الدوكا أخذ الأمير لعنده إلى العربه ؛ لأنها عندهم زيادة حرمه[5] ، ومشوا حتى وصلوا إلى باب السر بلاص[6]

(1) المئذنة والمقصود : برج بيزا المشهور والمكون من ثمان طبقات ، وارتفاعه خمس وعشرون ذراعاً ، وقد تم بناؤه في عام 1174م .

(2) المدماك : الصف من الحجارة .

(3) طبت : سقطت .

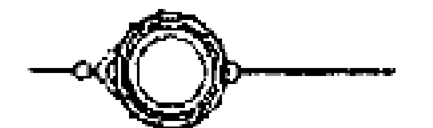
(4) هي امبروجيانا فيها قصر فخم للدوكا Villadell ombrogiana

(5) احترام .

(6) البلاص القصر (إيطالية) palazzo .

الدوكا ، والبلاص هي دار السعادة[1] ، وباب السر جديد ، وتحته خندق ، وعليه معدية[2] ترتفع وتنحط وقت العوز .

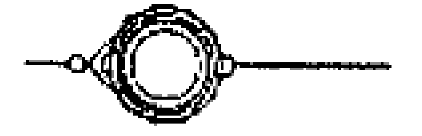
استقبال الدوكا للأمير فخر الدين في بلاطه



ولما دخلوا إلى الدار في المكان المعظم يلاقوا الدوكا مع دولته وحرمته ، وأكابر جماعته ؛ فسلموا عليهم ، وعادة سلامهم أن الأصغر في المقام يمد يده إلى قرب الأرض [ويرد] يده إلى عند فمه ، ويحني قامته للسلام .

فلما سلموا عليه على عادتهم ، رحّبوا فيهم ، وطيّبوا خواطرهم ، وأمروهم في النزول في البلاص القديم .

القصر القديم والقصر الجديد



وبين البلاص القديم ، والبلاص الجديد قناطر على ظاهرهم الطريق بين البلاصين ، مشقوقة ، مسطورة[3] ، والقناطر المذكورة فوق بيوت المدينة ، وفوق الجسر . وطول هذه الطريق الذي على القناطر ميلين . وفي الطريق الذي فوق الطريق شبابيك بجام قزاز على اليمين والشمال لأجل الضو ، وبين البلاص القديم والبلاص الجديد نهر عظيم شاقق المدينة ، وعلى النهر المذكور جوات المدينة[4] ثلاث جسور ، والنهر المذكور هو الواصل إلى بيزا ، ويسكب في البحر .

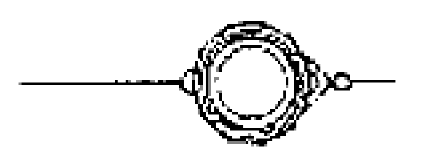
---

(1) بلاط الملك .

(2) قارب أو جسر للعبور .

(3) في نسخة : مستورة .

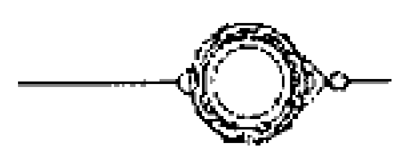
(4) داخل المدينة .



مدينة فلورنسا

والمدينة المذكورة لها تسعة أبواب ، وصور عظيم[1] . وقالوا : إن ضمان كل باب في السنة سبعين ألف شكوة [شكوت] [2] والشكوة بغرش وربع . لأن مالهم غالب دخله من البوابات . كل شيء يدخل للمدينة للبيع يحطوا عُشْرَه للحاكم . وذكروا أن الملأحة والوكالة ضمانها كل يوم بثلاثماية شكوة . وكذلك مهما جا بضايع في النهر من الذي ينقلوه من [مينة][3] اليغورنا في الشختاتير إلى بيزا وإلى فرنسيا ؛ لأن اليغورنا هي مينة بلاد الدوكا . الجميع ياخذوا كمركه ، وعلى الجوخ ، وعلى القماش ، والخمارات والدكاكين ، وجميع ما ينباع وينشرا لهم عليه عوايد[4] .

ودايِر المدينة صور عظيم ، وقالوا : إن داخل الصور أزيد من ماية ألف روح[5] .



نزول الأمير في القصر القديم وتأمين لوازمه

ولما نزل حضرة الأمير في البلاص القديم عينوا له طباخين ، ووكلا يقوموا[6] لهم مأكلة مفتخرة بكرة وعشية . إن كان في السفر أو الإقامة ، شيء بزياده .

ولما علموا أن الأمير ما مراده ياكل إلا من ذبيحة المسلمين بقوا يطلبوا رجال من جماعته حتى يذبحوا . وعيَّن في هذا الخصوص من جماعته الحاج محمد قواس

---

(1) سور ، وما زال بعض عامة الشام ينطقونها بالصاد .

(2) الشكوت أو السكوت scudi قطعة نقود بقيمة خمسة فرنكات (المعلوف) .

(3) ميناء . وفي تاريخ المعلوف : الذي ينقلوه من بيت بين أليفورنا في الشختاتير إلى بيزا . . . . إلخ .

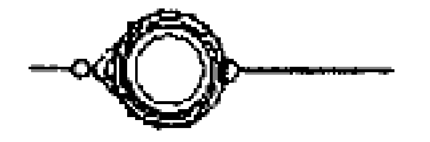
(4) رسوم .

(5) نسمة أو نفس .

(6) في نسخة : يقدموا وهي الأصح .

باشي ، ولما ما يكون حاضر يدبح ناصيف ، أصله سكماني ، وصار يسير[1] في مالطة ، واستفكه الأمير .

من أعيادهم وألعابهم



وفي ذلك الوقت حكم عندهم عيد المرافع[2] الذي يعملوه قبل صيامهم الكبير ، ويعملوا في ذلك العيد لعب متنوعة : من ذلك أنهم يعملوا وجوه مصبّغة ويلبسوها ، ويشيلوا ما في باطن بيض الدجاج ، ويحطوا موضعه ماء الورد ، ويتضاربوا فيه الأكابر مع بعضهم بعضا ومع النساء . وأما الأصاغر يحطّوا موضع الماء ورد ، ماء ، ويتضاربوا فيه . ويحطّوا خوده[3] على خشبة ، ويضربوا الخوده في الرمح والفرس راكض ، والرمح بيمسكوه من أسفله ، والرمح كل ماله بيدق أعلاه وبيتمنوه[4] . والرمح ما يكون له حربة ، بل يكون في راسه منزّل رصاص حتى يعلّم موضع الضربة .

وعندهم الخيال الشاطر[5] الذي يصيب عين الدرع بياخد الرهينه . وأيضًا يسابقوا بين الخيل في زقاق عريض في وسط المدينة من طول المدينة إلى طولها ، ويقافوا[6] الناس يتفرجوا على الخيالين ، ويركّبوا الخيل إلى الأولاد الذين عمرهم عشر سنين إلى العشرين ، ويركبوا الخيل من غير سرج في اللجام ، وفي يد الولد قمشا[7] الذي يضربوا بها الخيل . ويحطوا بيرق في راس الزقاق ، والذي يسبق للبيرق ياخذ الرهينه ،

---

(1) أسير ، وذكر الأمير حيدر الشهابي في تاريخه أن مضيف الأمير دوق تسكانا لاحظ ضيفه أثناء تناول الطعام فألفاه لا يأكل لحماً . فأمر بأن تقدم الذبائح للأمير حية ليقوم بذبحها أحد رجاله .

(2) وردت عند المعلوف المرفع وهي الأيام التي تسبق الصوم الكبير وهي ما تسمى بالكرنفال .

(3) هي الخوذه وعند المعلوف : درع وهي الأقرب إلى الصواب .

(4) لعلها تصحيف ، ومعناها غير واضح ، وهي ساقطة من تاريخ المعلوف .

(5) بمعنى الحاذق .

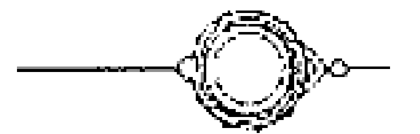
(6) ويقفوا .

(7) قمجى (بالفارسية) : سوط جلدي ، وقد فسرها المعلوف بمعنى السوط وحسبها إيطالية .

لأن أصحاب الخيل الذي يتسابقوا كل من يحط شي . وكذلك يركبوا رجال على بغال شموص[1] ، وبعد لبط[2] البغال إلى ورا ، وتعرُّضهم ، وقلّة مطاوعتهم ، البغل الذي يسبق ياخذ الرهينه .

وكذلك يركّبوا ناس على خيل ودوابّ وبغال أصغر ما يكون ، وعلى ضهورهم[3] جلود نموره ودياب ، وغيره ، يعني على صفت ياجوج وماجوج . وكذلك يتسابقون بين الناس وهم في الزلط[4] في الوزرة[5] لا غير ، والذي يسبق ياخذ الرهن مثل سباق الخيل .

كذلك يجيبوا الخنزير الذكر البرّاوي[6] ، يعملوا له جوره[7] صغيره من خشب ، ويلبّسوا رجّال الحديد من راسه إلى قدمه ، ويكون مع الرجّال خنجر ، وينزل الرجّال إليه ، ويضل يتماعك[8] الرجل هو والخنزير ، فإذا قتل الرجل الخنزير بيعطوه الخنزير!



المسرح

كذلك يعملوا في الليل لعب ورقص ، الرجال والنسوان في بيت كبير ، ويعملوا في البيت شي حتى يبان[9] أنه بعيد ، وله حُمرة مثل حُمرة السماء ، وناس ماشيه

---

(1) الشموس بالسين وليس بالصاد : الصعب القياد .

(2) اللبط بمعنى الرفس .

(3) كذا وردت والصواب ظهورهم .

(4) أي عراة ، والكلمة ما تزال متداولة في عامية الشام .

(5) الوزرة : الإزار .

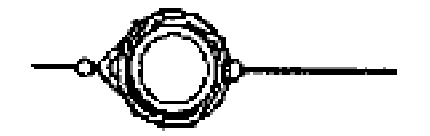
(6) البري .

(7) الجوره : الحفرة ، وحسبها الأستاذ المعلوف محرف حفرة أو تحريف كور الفارسية بمعنى القبر . . . . إلخ والصواب أنها عربية من الجور ، والمجوّر : المقعّر ، وتجوّر البناء تهدم وانخفض .والأرض : انخفضت .

(8) يتماعك : بمعنى يصارع وهي فصيحة .

(9) يظهر .

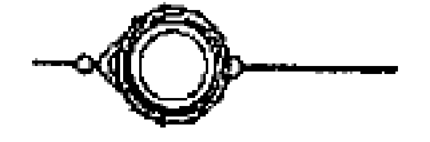
وسط الحمره على نوع الملايكه . وكذلك يعملوا في أرضية البيت لوالب خشب ، ويغطوها بقماش على لون البحر ، واللوالب والخشب تبقا تدور معه تحتهم حتى يبان أنه مثل مواج البحر ، ويمشُوا فيه شختوره من تحت على عجل ، ومن فوق تبان مثل الذي هي ماشيه على البحر . ويطالعوا [فيها] مقدار خمسة عشر شب مُرَدًا[1] من أحسن الناس ، ويطلعوا يعملوا رقص ومحاكاه[2] .



بانوراما

وكذلك يعملوا صورة مدينة فرنسيا ، وصورة اليفورنا بنهرها وجسورها ، ويعملوا دواب بعجل معدّيه على الجسور ، حتى صورة اليفورنا في قلاعها وخندقها ، وماء البحر دايره على الخندق .

ويعملوا أشيا كثيرة ، وما شاكل ذلك ، ولعب وأحوال عجيبه وغريبه .



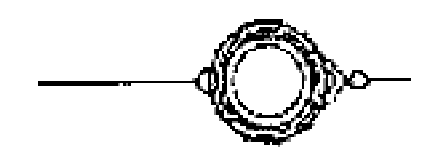
حفلات الرقص

وكذلك يرقصوا النسوان والرجال ، كل من يرقص مع ندّه : امرأة الدوكا مع الدوكا على مراتب أكابرهم من البيوت ، لأن عادتهم ما تحتجب النسوان عن الرجال لا في الرقص ، ولا في الزقاقات ، حتى إذا غاب الرجل تقعد المرأة تبيع في الدكان عوضه .

---

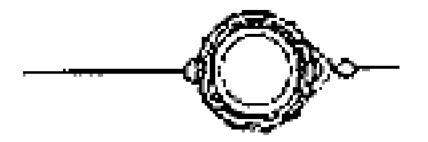
(1) جمع أمرد وصوابها مرد بضم الميم وسكون الراء .

(2) المحاكاة هنا بمعنى المحاورة والحديث هنا عن المسرح والتمثيل ، وفي نسخة المعلوف رقص ومحكى . وهذا أقدم وصف عربي للمســرح الأوربي في بداية القرن السابع عشر . وقد فسرها الأستاذ المعلوف بمعنى الأقاصيص التي يتلوها . القصاص (الحكواتي) ولا نحسبه أصاب المقصود .



متحف التاريخ والجغرافية

وفرّجوا الأمير على مواضعهم ، وعلى التحف الموجودة . وحاططين في خرستانات[1] وأبوابهم من شريط النحاس مسكرة بأقفال ، ويبان الحوابج الذي فيهم من غير فتح . وجميع سلاطين الإسلام ، ومشايخ العرب مصورينهم ، حتى كرة الأرض ، والسبع سموات من نحاس تدور . حتى مصورين الوقايع والاكوان[2] الذي صارت قديمًا ، وأخيرًا اليهود الذين صلبوا شبيه المسيح على لبسهم القديم ، كل زمان بزمنه ، حتى مصورين السبع أقاليم بابحارها ، وجزايرها ، ومدنها .



المتحف الحربي

وفرجوا حضرة الأمير على الجبخانة[3] ، حتى مصورين صورة المنجنيق القديم الذي بقوا يضربوا فيه الحصارات ، وقيس الجلخ بنشابهم[4] ، وجميع تصاوير آلة الحصارات القديم . وجميع التصاوير من نحاس حتى لا يندرس[5] . وكذلك حجر مغناطيس كيف هو لازق في مرسة الحديد[6] من الطبيعة من غير صناعة . وكذلك عاملين مدافع ملتزقين في بعضهم البعض ، وكذلك بندق على هذا المنوال اثنين وثلاثة حتى إذا ارتمي الواحد يبقا الآخر حاضر .

---

(1) في نسخة : وحاطينها وهي الأنسب للسياق .

حط بمعنى وضع ، والخرستانة والخرستان بمعنى الخزانة (فارسية) .

(2) الحروب مفردها كون ، والكون : الحادثة .

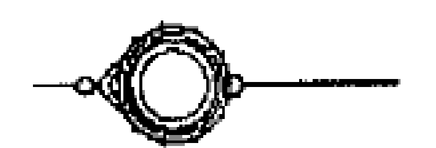
(3) مكان الذخائر الحربية (تركية) .

(4) كذا وردت ولعله أراد القسي جمع قوس والجلخ من أنواعها والنشاب : السهم .

(5) يندرس : يبلى .

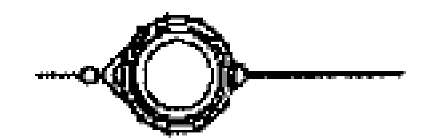
(6) لعله أراد الحبل من الحديد .

الكنيسة القديمة



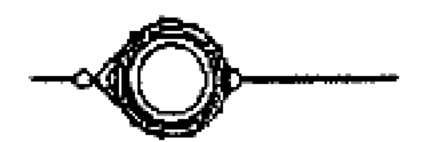
ومن عجايب المدينة الكنيسة القديمة من برا رخام، وتصاوير الحواريون والتلاميذ بكلفة عظيمة، ولها مادنه مربعة مبنية بالرخام الملون، ولها سلم الذي يطلع إلى القبة الذي يضربوا فيها الناقوس أربعماية وخمسين درجة، ولكن درجهم واطيه، وقبتها من نحاس مطلي بذهب تساع[1] مقدار عشرة رجال.

الكنيسة الجديدة



وأعظم من ذلك الكنيسة الجديدة الذي بدا في بنايتها أبو الدوكا، وهي أصغر، ولكن عظيمة الشغل لأن عامل من جوًّا حيطانها في الحجر الملون، ونقشها من حجر فيه حجر[2]، وبين الحجر والحجر صفايح نحاس باينه من المزمّك بذهب[3]. وجميع بنديرات سلاطين النصارى مصوّرة في حيطانها في الحجر الملون[4].

دار السكة وآلاتها



وكذلك الموضع الذي يعملوا فيه دراهم الغروش ضرب خانه[5] على الماء، ولها مثل الجلخ[6] يدور على الماء، وفوق منه طود[7] بولاد منقوش سكة الغروش، الجنب

---

(1) تتسع.

(2) في نسخة: في.

(3) مزمك بذهب: محشو، وباينه: ظاهرة.

(4) لعله أراد الفسيفساء.

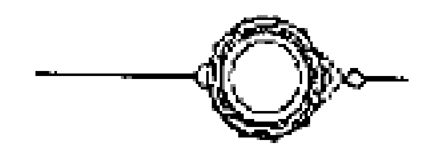
(5) ضرب خانه: دار السكة التي تصنع فيها النقود (تركية).

(6) أي: دولاب يدور على الماء.

(7) أحسبها «طور» بالراء كما في بعض النسخ. وهو الإطار.

الواحد منقوش في الجلخ ، والوجه الآخر منقوش في الطود ، وبينهم خلا[1] على سمك الغروش . ويدقوا سبيكة الفضة ، ويلقموها[2] إلى الجلخ والماء يفتله ؛ فتشرق[3] السبيكة مثلما يشرق محلج بزر القطن[4] فإذا ارتمت السبيكة تطلع مسكوكة على الوجهين ، ويشرُقوه سبيكة غيرها على هذا المنوال . ولهم مقطع ملولب على دور الغرش محرّف على قدر الغرش ، وإذا انقطع مهما زاد على الغرش يقع إلى الميل الآخر[5] ، فيلمّوه[6] ويعودوا يسبكوه .

وأما الذهب يسكُّوه بالمطرقة ، والسكّة والسندان على العاده .



صناعة البارود

وكذلك يدقُّوا البارود على الماء ، وله أجران[7] ، والماء تدوّر المدقّات[8] ، والمدقّات خشب وراسها نحاس . والاجران تسعة ، ولها فرد رجّال[9] يحرّك البارود تحت المدقات . وقالوا : إن كل وجبة[10] بارود تطلع أزيد من قنطار شامي . والبارود يطالعوه من الزبل الذي يجيبوه من المغاير[11] وغيرها ، وينقعوه[12] ، ويكرّروه في جصاطر لها

(1) خلا : فراغ .

(2) التلقيم بمعنى التقريب ولقمه بمعنى أطعمه .

(3) تشرق بمعنى تبتلع .

(4) المحلج الآلة التي تخلص القطن من الحب .

(5) الميل الآخر : الجانب الآخر .

(6) يلمّوه من لم بمعنى جمع .

(7) الأجران جمع جرن وهو حجر مجوف تدق فيه المواد الصلبة .

(8) المدقات جمع مدقة وهي آلة يدق بها البارود ونحوه .

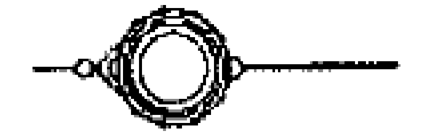
(9) أي رجل واحد .

(10) الوجبة : ما يعمل في المرة الواحدة .

(11) أي يستخرجونه من الزرائب . والمغاير جمع مغارة : الكهف .

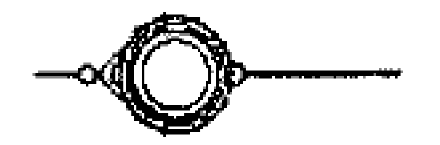
(12) ينقعوه بمعنى يضعونه في الماء .

بزالات[1] ، ويعيدوا عليه[2] من موضع إلى موضع حتى ينظف .



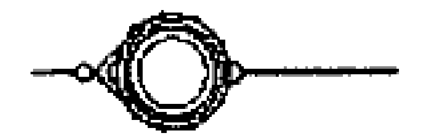
بستان الدوكا وقلعته

وابنا الدوكا[3] فوق بلاصه من الشرق قلعة على تلّ على حدّ الصور والبستان بين الحارة والقلعة . وفي هذا البستان من جميع الفواكه المتلوّنة حتى جميع أعشاب الحكمة[4] مزروعة فيه لأجل الاحتياج ، والقلعة عظيمة . وقالوا : إن أغلب ما له حاططه فيها ، وما أحد يدخل القلعة غير المعينين فيها . حتى قالوا : إن من عشيّة يحطُّوا لها مُعدِّية بصناعة آلة ، وأيّ من دخل إلى عند الباب الجواني يسقط خلفه باب برّاني ، ويبقى الرجل محبوس بين البابين لبكرة[5] حتى يجوا يلاقوه!



دخل الدوكا

وناس قالوا : إن مدخوله كل يوم ثمانين ألف غرش ، وناس قالوا : إن هذا مدخول بلاده كلها الذي له ، والذي لغيره . وناس قالوا : إن مدخوله كل سنة عشر كرات[6] ذهب .



تاريخ حكم الأسرة

وقالوا : حكمه ما هو قديم مدّة ماية سنة ، من سنة تسعماية للهجرة[7] . وأصلهم

(1) والجصاطر الأواني ، والبزال مخرج الماء من الإناء .

(2) أي يكررون العمل أكثر من مرة .

(3) بمعنى بني الدوق .

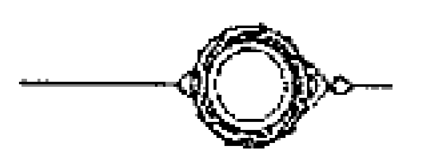
(4) الأعشاب الطبية .

(5) حتى الصباح .

(6) كرات جمع كرة بتشديد الراء : مئة ألف .

(7) يعني حكم الأسرة المديشية .

يقال لهم : بيت الحكيم من كبار مدينة فرنسيا ، إلى يوم تاريخه بنديرتهم ست طايات[1] ، يعنى عدد حبات الشربة الذي يسقوها للضعيف ، وبلادهم معمورة مضبوطة بالاطاعة والنياحة[2] .



مكانة الدوكا بين سلاطين النصارى

واسم كان دوكا تفسيره بالعربية : الأمير الكبير ، لأن في بلاد النصارى أمارة[3] عدة . وزعموا أن هذا الأمير أكبر من جميعهم ، وجميع سلاطين النصارى يكاتبوه ، وراضيين منه ، وحكمه متوارث ، لا ينقل عنهم هذا الحكم ، ولا هذا الاسم ، ولا يودّي خزانة[4] لأحد من السلاطين ، بل ميله بالمحبه إلى سلطان اسبانيه أكثر من الكل . وزعموا الرواة عنه وقالوا : إنه حسن الأخلاق مهاب المنظر[5] .

---

(1) طايات مفردها طاية : ولعله أراد بها الطيات جمع طيّة

(2) النياحة : الراحة وهدوء البال (سريانية) .

(3) أي أمراء عديدون .

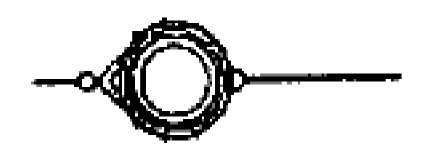
(4) أي لا يدفع مالاً لأحد من السلاطين على غرار ما يدفعه الأمراء في الشرق للسلطان العثماني .

(5) وفي تاريخ المعلوف زيادة :

وفي ذلك الوقت وصل خبر إلى بيروت أن الأمير فخر الدين وصل بالسلامة إلى مدينة الدوكا ، وصار له إعزاز وإكرام زايد من الواجب والقبول .

وبعد ذلك أتاهم خبر تاني أنه معتمد الرجوع إلى البلاد فضجوا أهل بيروت من الفرح ، وأتاهم خبر أن جايي في غليون للدوكا ؛ فطلعوا جميعهم أهالي المدينة الأكابر والأصاغر لعتد النهر ، وبدوا ينظروا حتى أنها تصل الترقانة للبر وعسكوا جميع من بها لأنهم كانوا تحققوا أنهم قرصان من بلاد الدوكا المقدم ذكره . هذا والافرنج قد أيسوا السلامة وهم يقولون إلى محمد بن العيسوف : إذا وصلنا إلى البر ، وضربنا قلعة ، وبدينا تدافع عن أنفسنا بهوش مقلع ، ما فينا نصل إلى الشوف بيوم واحد ، ولا نسلم أنفسنا لهؤلاء القوم ، ولا نعيش تحت أيديهم بالذل والاعتقال . فقال لهم ابن العيسوف : هذا الشيء لا يمكن يصير ، ولا به فلاح ، لأن قدامنا وفي طريقنا أمم وعالم لا تحصى ولا تعد ، ويقع علينا ==

وصول مكاتيب من الأمير فخر الدين



[وفي شهر صفر الخير سنة ثلاث وعشرين وألف وصل محمد ابن عيسوق ، ومحمد ابن الكاور[1] ، وعلى يده مكاتيب من حضرة الأمير فخر الدين بخبر وصوله بالصحة والسلامه ، وانهم دخلوا إلى مدينة الكرنه من حكم اغران دوكا ، وأرسل يطيّب خواطر الطايفه[2] ، ويحرّضهم على حفظ الخبز والملح ، وحفظ القلاع التي هم

== النفير ، وأنتم جميعكمماية نفر ما لكم إلى لقا جميع الذين في طريقنا من الناس .

وهم في هذه الحالة وهذا الضيق ، وإذا بالمرسة الواحدة استمسكت في صخر بقاع البحر ، وتوقفت الترتانة عن المسير للبر ؛ فتباشروا أهل الترتانة ، وفرحوا فرحاً ما عليه من مزيد ، وتضرعوا بالدعا إلى الله سبحانه وتعالى الذي أفرجها عنهم ، فللأمر الذي يريده الله تعالى ، وسبب مجيء جماعة الأمير معهم مكاتيب بخبر وصوله بالسلامة . فلم تكن أقل من ساعة حتى كنّ الريح وهدي البحر عما كان ، وأمنوا على حالهم بعدما كانوا أيسوا السلامة . وقالوا : إن لم بقوا بعاد عن البر إلا رشقة السهم .

وأما الناس والغلمة الذين كانوا ظهروا من مدينة بيروت لنظرة الترتانة وناسها نطروها توقفت عما كانت عليه سابقاً ، والبحر هدي ، والريح كن ، فرجعوا إلى ديارهم من غير فايده ، وكما قال بعضهم شعراً :

ولرب ضائقة يضيق لها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

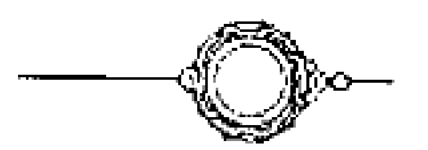
وداموا راسيين عند نهر بيروت ثلاث أيام ، واخذوا الاعلام على التحقيق ، وعلموا أن المين (الموانئ) وسواحل البحر الجميع صاروا في يد الدولة ، وفي يد يوسف باشا ابن سيفا وولده حسين باشا ، فاقلعوا من هناك إلى قرب مدينة صيدا . ونزل ابن العيسوف ومحمد ابن كاور علي ، والقبطان وعشرة من الافرنج ، وصحبتهم جميع المكاتيب الذين من حضرة الأمير فخر الدين .

(1) مبعوثا الأمير فخر الدين ، وسنة 1023 هجرية توافق سنة 1614 ميلادية .

(2) أي يسترضيهم ، ويستأمنهم ، والمقصود بالطايفه هنا الجنود السكمان المحاصرون في القلاع .

فيها ، وأرسل إلى جميع أمراء العرب ، ومشايخ البلاد كذلك ، وأرسل يطلب أخبار البلاد وما حدث فيها بعد طلوعه منها .

وطلع قبودان الترتانه[1] إلى الدير ، ومنها إلى شقيف نيحا ، ومنها [إلى] قلعة الشقيف ، ومنها إلى بانياس ، وتفرج فيها وصار له رعايه كليه .



تفاصيل وإيضاحات

وأخبر حضرة الأمير فخر الدين في مكاتيبه : أنهم من حين توجههم من أسكلة صيدا ، وصلوا إلى جزيرة كنديا[2] التي تحت حكم البنادقه ، وصار عليهم فرتونه عظيمة ؛ وافرق الغليون الفلمنك الذي فيه الأمير فخر الدين عن الغليونين الفرنساويين اللذين فيهما الحاج كيوان ، وعيال الأمير موضوعان . فطلع الأمير فخر الدين في مدينة الكورنا ، ولاقاه وزير غران دوكا بمن معه ، واستقبلوه بالإعزاز والإكرام ، وأنزلوه في دار ، وعيّنوا له جميع لوازمه بالتمام .

وبعد أربعة أيام وصل الغليونان بالحريم والحاج كيوان . وقد كان الأمير فخر الدين آيس منهم ، وقطع الرجا عنهم . وأقام عشرة أيام في الكرنه[3] ، وتوجه بنفسه ، وفي خدمته وزير الدوكا إلى مدينة الفرنسا تخت[4] اغران دوكا ، وبينهما مسافة ثلاثة أيام ، واجتمع باغران دوكا ، وصار له رعاية لا يمكن ضبطها بالأقلام ، وفرّجه على جميع خزاينه وزرد خانته[5] ، وعشايره .

وأهدى الأمير فخر الدين للدوكا سيفًا مرصّعًا ، وحصانًا أحمر كحيلة

---

(1) السفينة (إيطالية) .

(2) جزيرة كنديا : كندية أو قندية ميناء يقع على الشاطئ الشمالي لجزيرة كريت ، والملاحظ أنه أطلق اسم الميناء على الجزيرة ، وأمثلة ذلك كثيرة .

(3) ليفورنو .

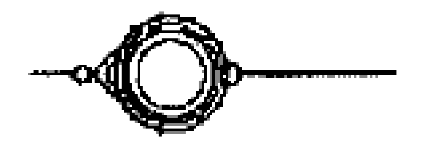
(4) هي فيرنسه أو فلورنسا ، والتخت : العاصمة .

(5) زرد خانة (تركية) : مستودع الدروع .

السكين[1] ، وكان هذا الحصان ليس له نظير في عربستان[2] .

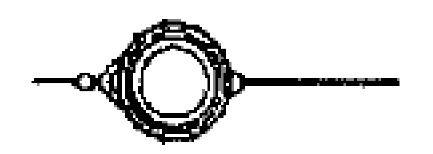
وطلب حضرة الأمير فخر الدين من الدوكا أن يُعيّن لـه ترتانه ليرسل فيها جماعته بمكاتيب إلى بلاده ، ثم عاد الأمير إلى الكرنه إلى عند عياله ، وحين وصوله كتب المكاتيب ، وأنزلها في الترتانه صحبة من عيّنه لإرسالها .

أجوبة عن رسائل الأمير فخر الدين



فلما وصلت المكاتيب كتب حضرة الأمير يونس ابن معن ، وحضرة الأمير علي ابن معن ، وحسين يازجي ، وطويل بلوكباشي ، وجميع الأمرا كتبوا جوابها ، وعرّفوا حضرة الأمير أحوال البلاد سوى يوسف باشا ابن سيفا[3] ، فإنه لم يكتب للأمير شيئًا ، بل قال لحضرة الأمير يونس : إن أخاك بعد ما صار له حال[4] ، ولا رضيت عليه الدوله ، ولا عُرف له مآل .

حملة الرسائل



وعاد ابن عيسوق وابن الكاور بالجوابات ، وتوجّه معهم الشيخ يزبك ابن عبد العفيف من أعيان الشوف ، لأن كان له عليه إحسان ، وحكّمه[5] بلاد صفد سنه ، وبلاد بشاره سنه ، وأنصفه من خصمه الشيخ جنبلاط ، ووضعه في قلعة الشقيف محبوسًا[6] . وتوجه معه بعض ناس من أهل الشوف ، ومن خدمه مقدار خمسين

---

(1) من أصناف الخيل الأصائل .

(2) بلاد العرب .

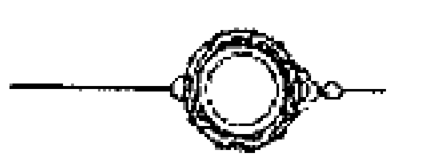
(3) حاكم طرابلس وهو من أعداء فخر الدين .

(4) ما صار له حال : أي لم يعرف مصيره .

(5) حكمه بمعنى أسند إليه حكم بلاد صفد وبلاد بشارة (منطقة جبل عامل) في جنوب لبنان .

(6) في تاريخ المعلوف : وتوجه أيضاً الشيخ خاطر بن الخازن من عجلتون كسروان وتوجه معهم بعض . . . . إلخ .

[نفس] . وكان توجُّههم من نهر الدامور في أوايل شهر ربيع الأول من تلك السنة[1] .
وأرسل حسين يازجي يشكو من السكمانيه التي في القلاع بأنهم صاروا آخذين بخشيش[2] الطايفه ثلاث مرات ؛ لكل رجل في كل مرة خمسة غروش ، والعلوفة[3] كانت لكل رجل ثلاثة غروش فما رضوا إلا بأربعة .



عودة الشيخ يزبك من توسكانا برسائل الأمير

وفي شهر جمادى الأولى (1023) . . . كان طلوع الشيخ يزبك من البحر من عند حضرة الأمير فخر الدين وصحبته أناس من جماعة الأمير . ونحو خمسماية بندقية كانوا جاوا من الشوف لملاقاتهم .
وكـان مجي الشيخ يزبك ومن معه في ثلاث غيالين[4] للدوكا وقبودانهم جن نار[5] . . . وطلع الشيخ يزبك والحاج علي ابن ظافر ، ومن جاء معهم إلى عند الأمير يونس بدير القمر ، ومعهم مكاتيب وغيرها من الأرمغانات[6] من حضرة الأمير ، فدفعوها لأربابها في المحضر ، وأرسل لحسين اليازجي عشرة آلاف ذهب على وجه الخفيه ليصرفها على الطايفه لأن حسين اليازجي كان قد تضايق من جهة الدراهم ؛ حتى كانوا باعوا جميع الحوايج التي كانت في قلعة بانياس مع مصاغ بيوت الأمير حتى الخواتم .[(*)]

---

(1) سنة 1023 هـ = 1614 م .

(2) البخشيش : الهبة والعطية . (فارسية) .

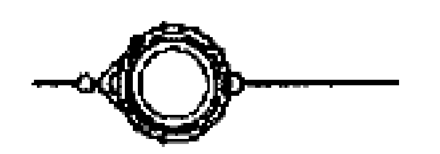
(3) العلوفة : بمعنى المعاش أو الأجر .

(4) كذا وردت والصواب غلايين .

(5) جن نار : جنرال .

(6) الأرمغانات : لعله أراد بها التحف .

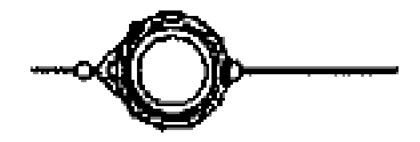
(*) نقلنا الفقرات الواردة بين المعقوفتين من تاريخ الخالدي (ذكر الحوادث الواقعة في أثنا سنة ثلاث وعشرين وألف) من صفحة33-34 .



الأمير فخر الدين يقيم في مدينة فرنسيا

وكنا ذكرنا أن حضرة الأمير فخر الدين معن ، نزل هو والحاج كيوان من مدينة فرنسيا إلى عند أعيالهم إلى مدينة اليغورنا ، وأنه تعيَّن لهم خرج جزيل بجميع ما يحتاجوه بالزايد . فلما رأى الدوكا أن الأمير والحاج كيوان مقيمين عنده بعيالهم رفع كلفة الماكله ، وعيَّن لهم في كل سنة ألفين غرش ، اشكوت بغرش وربع أبو كلب ، وعربة لأجل الركوب في المدينة ، ولأجل قضاء مصالحهم . وبقوا يشتروا احتياجهم للماكل .

وعيَّن لهم دار في فرنسيا بلده ، وتوجهوا من أليغورنا إلى الدار المذكورة ، سكنوها قرب سنتين ، وبقا الدوكا يعطيهم الألفين شكوت كل ثلاث شهور مرة ، وقت برضه خاطر ، ووقت بتكدير .



من متنزهات فرنسيا

وفوق فرنسيا دار عظيمه مكلّفه ، ولها بساتين ومياه ، حتى عامل فيها في وادي موضع أزيد من مابة دراع مشبّكين في الشجر بحديد مثل الخيمه ، ومشبّكين بين الحديد بنحاس ، ومقطّعين بينهم ، ومطبلقين[1] في كل موضع طيور جنس ، يفرّخوا الذي عادتهم بالشجر في الشجر ، والذي عادته في الأرض في الأرض ، والماء جاري تحت منهم لأجل شرب الطيور . والماكله يحطوا لهم . ومماشي البستان كله مبحّص ببحص[2] ملوّن بمونة نقش[3] ، وعاملين منه تحت الممشا أنابيب حديد ؛ إذا أرادوا يستهزوا على أحد ، ودخل على ذلك الممشا ، لهم موضع يسيبوا عليه الماء تطلع من الأنابيب أزيد من القامة بحكم الرجّال الذي يكون داخل إليه .

---

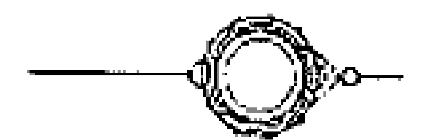
(1) بمعنى جامعين .

(2) أي مرصوف بالحصا ، والعامة تقول بحص . وفي بعض النسخ : مبلّط .

(3) المونة : المادة الماسكة ، أو الملاط كالكلس ونحوه .

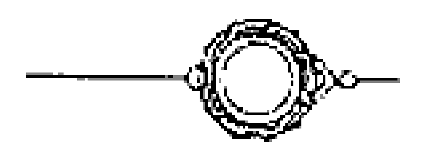
وفي هذا البستان قُبة ، ومصوَّرين فيها آدميّه[1] ، وكل آدمي في يده ملها[2] من سائر الملاهي ، وله لوالب ، إذا وصل الماء إليه يبقا كل شخص يلعب في الآلة الذي بيده .

وقصدهم في عمارة هذه الحارات والمواضع لأنهم يقعدوا كل ثلاث شهور في موضع بعيالهم وأولادهم وخدمهم في فصول السنة ، ثلاث شهور الشتاء في الساحل ، وثلاث شهور الصيف في الجبل ، وثلاث شهور الربيع في الأوسط ؛ موضع يكون فيه صيد وربيع ، وثلاث شهور الخريف كذلك . ولهم نياحة بال[3] ، وفضاوة خاطر .



تنظيف الشوارع

وكل يوم يكنس قدام[4] داره لوسط الزقاق ، وبيعمله كومه ، وتجي دواب على كيس المدينة تنقله ، وتشلحه برّات المدينة[5] .



الدجاج في فرنسيا

وفي مدينة فرنسيا دجاج كبار جايبينهم من ما زورة ، يُباع الديك منهم في فرنسا بثلاث غروش ، والدجاجه والمقطوش[6] من الغرش إلى الغرشين .

وعندهم دجاج الحبش أكبر من ذلك ، ولكنه أرخص ثمن ، ووزنوا دجاجة الحبش

---

(1) آدمية : بشر .

(2) الملها : الآلة الموسيقية .

(3) أي هدوء بال ، لا تشغلهم هموم الحياة ومتاعبها .

(4) في تاريخ المعلوف : وكل يوم كل واحد يكنس قدام . . . . إلخ .

(5) أي ترميه خارج المدينة . وعلى كيس المدينة : على حسابها .

(6) المقطوش هو ما نسميه الفروج أو الفرخ قبل أن يصبح ديكاً ، ولعله قصد بـ فرنسا ، فرنسيا .

من غير ريشها اثنين وثلاثين ليبره ، كل ست لبار رطل شامي .



القنبيط

والقنّبيط قليل في بلادهم[1] ، وإذا انوجد زهره يشتروها أكابرهم بنصف غرش .



البقر والغنم

ولحم العجل البقر عندهم ينباع أغلى من الغنم . والبقر عندهم كثير الوجود في غاية الكثرة .

وجميع غنمهم اليته طويلة ، ولحمه زكي الطعم . والجاموس عندهم قليل الوجود .

وأما الجمال[2] ما له وجود . وبيعمّلوا البقر[3] سبع سنين ، وبعده يسمّنوه ويذبحوه ، ويبيعوا لحمه .



عن الزراعة وتربية الطيور والأرانب

ولهم رغبة وأوايل عدة إلى الزرع[4] والغلال والفلاحه ، وجميع غلتهم يدقّوها دقاق على طولات خشب بعصي . وانشرى غرارة[5] حنطة شامية ، وتنقّت في اليد ، نقصت ربع مُدّ .

---

(1) القنبيط أو القرنبيط : الزهرة .

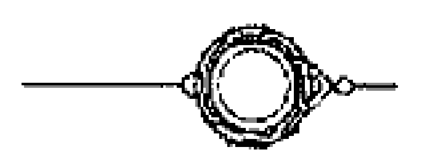
(2) في تاريخ المعلوف : الجمل ، وهذا أنسب للسياق .

(3) تعميل البقر : استخدامه في الفلاحة .

(4) الأوايل : الآلات .

(5) الغرارة تساوي ثمانين مُداً .

وكل مدة اثني عشر سنة يقلبوا أرض الزرع في المَر[1] . والدوكا عامل خنادق في البساتين على تلال ، ومدوّر فيها الماء ، وحاطط[2] في هذه التلال مثل الوز والبط والأرانب . وكذلك عندهم أرانب مثل الطبسون[3] ، ويوكّروا[4] تحت الأرض ، ويولد كل شهر مرة . والطاووس موجود عندهم بكثرة ، وأغلاه وأفخره الطاووس الأبيض . ولها اسطبلات في البساتين لأجل البقر ، وعمل الجبن ، ومواضع إلى تربية الحمام ، وما أحد له قدره يرمي على الحمام بندق ، ولا سهم . وكل من له أرض ، أو بلد مهما كان بها من الجبال والحطب ، وعشب[5] وصيد ما أحد يقدر ياخذ منها شيء ؛ إذا لم يكن بإذن صاحبها ، وبرضاه .



البيمارستانات ونظامها[6]

وفي مدينة فرنسيا وغيرها بيمارستانات لأجل الضعفاء ، وأي من ضعف ، وكان له خاطر يروح إلى البيمارستانات يلاقي الحكما موجوده ، وجميع ما يحتاج الضعيف ولو كان أقل الناس ، وأراد له أدويه بألف غرش يداووه بها من غير منّية[7] ، وأكله وشربه ، وفرش ولحف وناس معدّة لخدمة المرضى بجميع ما يحتاجوا إليه .

ولما يعرف الحكيم أنه طاب يطالعوه من غير كلفه ، وما يحطّ الضعيف درهم الفرد . وجميع المصروف من أوقاف البيمارستانات .

---

(1) المر بفتح الميم : آلة معروفة تستخدم في فلاحة الأرض وعزقها .

(2) أي واضع .

(3) الطبسون : الخرير .

(4) يوكروا : أي تحفر الأرانب أوكارها تحت الأرض .

(5) في تاريخ المعلوف : وخشب .

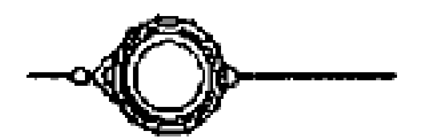
(6) البيمارستان : المستشفى .

(7) بدون منّه .

وكذلك لهم ديوره[1] فيها خدّامين ومراضع ، كلّما خلق ولد للنسوان من الذي تحت القسط ، أو من النسوان الذي يخلق لهم ولد وما مرادهم يشهروه[2] ، حتى إذا أحد من الفقراء ولد له ولد ، وكان له أولاد كثيره يرميه في هذا الموضع كرامة ترباته[3] .

وهذا الدير له طاقة من رخام على قدر ما يسع الولد ، حين يخلق تجيبه الحرمه ملفوفًا ، وترميه في الليل من هذه الطاقة ، ولها ناس ينتظروها من جوّا ، وإذا نزل الولد يستلقّوه[4] ، ويعطوه إلى المراضع يدبّروه .

وإذا كبروا الأولاد يحطّوهم[5] في القراءة والصناعة ، ويحطّوا الذكور وحدهم . وإذا بلغوا الأولاد الإناث يدوّروهم في المدينه ، وكل من قبل على جواز[6] يجوّزوه بنت منهم إن كان من أولاد المتربيين في الدير ، أو من الناس الذي برّا ، يجوّزوه البنت الذي علّمها . وكلفة تربيتهم وجوازهم من أوقاف الدير ، ومن كيس السلطان ؛ لأن السيره[7] عندهم المرأة تعطي الرجّال النقد ؛ كل من هو على قدر حاله ، على قدر مراتبهم .



من أنواع الأديرة

وكذلك لهم ديوره للبنات الأكابر ، وديوره إلى بنات العامة الذي يرهّبوا فيهم

---

(1) ديوره : جمع دير .

(2) أراد الأولاد غير الشرعيين .

(3) أي تربيته .

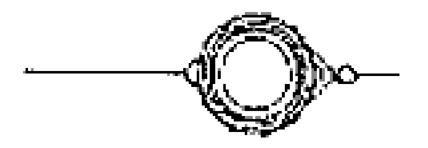
(4) أي يأخذونه .

(5) أي يعلمونهم القراءة والصناعة .

(6) جواز فصيحها : زواج .

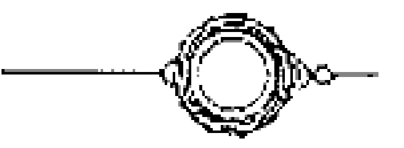
(7) السيرة بمعنى العادة .

البنات ، وعلى هذا المنوال ديوره إلى الأولاد والرجال . وجميع من يدخل إلى هذه الديورة كلفته من أوقاف الدير ، وأولاد الأكابر يأتيهم من أهلهم .



أديرة الكبوشيّين

وكذلك لهم ديوره فيها رجال يقال لهم كبوشيين[1] ، ما يلبسوا قميصًا ولا لباسًا إلا الصُّوف على الزلط[2] ، ويحلقوا وسط روسهم ودايره ، ويخلُّوا لهم إكليل ، وذلك لأجل الشوك الذي حطُّوه اليهود على راس المسيح يوم صلبه على زعمهم . ولا يمسكوا هؤلاء في أيديهم فضة ولا ذهبًا ، ولا يركبوا فرسًا ولا دابة ، وديورتهم لم لها أوقاف ، بل عيشتهم أول بأول من الناس يوم بيوم .



البنوك ونظامها

وكذلك لهم مواضع مثل الوكالات محصّنة تسمّا البنك ، وله ناس بعلوفة[3] ينطروه ، ويدوروا حوله في الليل ، وكل من كان معه دراهم زايده ، وما له خاطر في التجارة منها ، أو مال لولد ما له قدرة على التجارة بيسلّم المال إلى الأكابر المتعيّنين[4] في البنك ، وياخذوا منهم تمسُّكًا[5] . وخدّامين البنك لهم كفلا من أكابر المدينة ؛ حتى لا يطلع على أحد شي يسفّروا المال من تحت أيديهم . وأي من أراد يروح

(1) أسس الكبوشيون دياراتهم في الشام في القرن السابع عشر في زمن الأمير فخر الدين المعني ، ونشروا رسالتهم في المدن الشامية منذ سنة 1625 م .

(2) أي يرتدون الصوف على الجسم مباشرة دون لباس داخلي وذلك من باب التقشف . والعامة تقول تزلط بمعنى تعرّى .

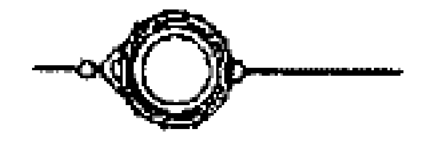
(3) العلوفة : الأجر والمرتب .

(4) الأكابر المتعينين : أي موظفوا البنك .

(5) التمسك : الموصل ونحوه .

يستقرض مال من البنك ياخد معه رهن من صيغة[1] وأسباب ، ويروح يسلّمهم إلى خدّامين البنك ، ويتمّنوا الصيغة والأسباب ، ويسقطو ثلث الثمن ، ويكتبوا على الوديعة اسم الرجل والقيمة ، ويحطّوها في صناديق مسكّرة بأقفال عدّه ، ويعطوه تمسّك إلى ناس من خدامين البنك ، ويروح يعطيهم التمسك يقروه ، ويعطوه على قدر ما في التمسك ، ويجعلوا التمسك عندهم لأجل الحساب فيما بينهم ؛ لأجل الضبط ، وناس بياخدوا الرهن ويعطوه التمسك ، وناس ياخدوا التمسك ويعطوه الدراهم ، وكلهم من خدامين البنك . وعادتهم على كل ماية سبع غروش[2] ، خمس غروش لصاحب الدراهم على كل ماية بالسنة ، غرشين لخدامين البنك .

وإذا كان الرهن لـه شهر أو شهرين ، أو أزيد ، أو أنقص ، وأراد صاحبه يستفكّه يحاسبوه على الفايده على عدد الشهور ، وياخذوها على حساب المالية سبع قروش في السنة . وإذا فات الثلاث سنين وما جا صاحب الرهن استفكه يبيعوه ويطلع ثلث زود ثمن الرهن عوض الفايدة ؛ لأن إذا كان الرهن قيمته ماية وخمسين ، وما يعطوا عليه إلا ماية كرامة إذا ما فكّه صاحبه يطلع ثلث زود عوض الفايدة .



من أنظمتهم وضرائبهم

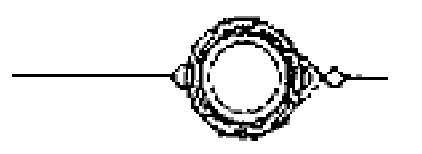
وفي بلاد النصارى ما يعدُّوا الأشجار ، ولا يقسموا الاغلال . وفي بعض البلاد يبدروا الأرض ، وياخذوا حق البدار بالسعر[3] ، وإن أرادوا ياخذوها غلال . وبعض البلاد إلى الحكام وكلاء في الطواحين ، إذا جاؤا طحنوا ياخدوا المعتاد للسلطان ، والمعتاد للمدينة ؛ لأن المدينة لها مال وحدها مثل الحسبة . ومهما انباع من غلة الأشجار مثل نبيذ أوغيره ياخذوا عليه .

---

(1) الصيغة : الحلي .

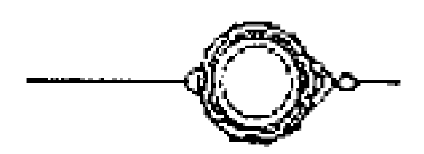
(2) يعني الفائدة .

(3) البذار : رش الحبوب في الأرض تمهيداً لطمرها في التراب . وحق البذار : ثمنه والملاحظ استخدام الدال بدلا من الذال المعجمة .



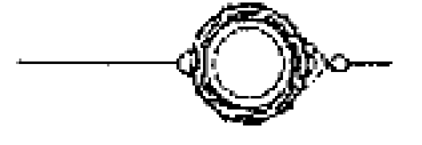
الأموال والنفقات والضرائب

ومال المدينة لـه كُـتّـاب وحُسّـاب تضبطه وحده ، وهذا المال يتصرف إلى مبنيات مثل الصور والدروب ، وجسور ، وبلاط أزقة ، وما شاكل ذلك للمدينة وللبلاد ، ومهما فضل يعملوه خزينة[1] عندهم ، حتى إذا صار مضايقه أو حصار ، أو جمع رجال يصرفوه على العسكر على الاحتياج ـ وجميع بلاد النصارى على هذا المنوال ، وبعض بلاد ياخذوا قسم الحنطة من الطاحون ، على الكيل شي معلوم ، ولو اشترى أحد حنطه من فلاح يقطع المعتاد عليه للحاكم ، يعطي المعلوم للأمين وحده ، ومال المدينة وحده ، وكري الطاحون وحده بشي معلوم على عوايدهم .



آلة لرفع الأكياس وضرائب أخرى

وكل طاحون لها لولب ، بيرفع عدل الطحين في اللولب على رفع الدابة[2] ، ويقدّم الدابّة لتحت العدل ، وبيرخي اللولب يجي العدل على ظهر الدابة من غير تعب . وكذلك ياخذوا الموجَّب في الأسكلات على الغلال وغيره . ولهم عادة على القماش والجوخ والدكاكين والخمّارات ياخذوها . والبيع والشرا حتى السمك وغيره بياخدوا من كل شي على عادته .



قانون العقوبات

وأما الجرم والجرايم ما ياخذوا منها شي في بلادهم ، وجميع القصاص والقتل ، والحبس والغراب[3] ، وكل ذنب له مدة سنين معلومة مكتوبة عندهم ، ولا يمكن

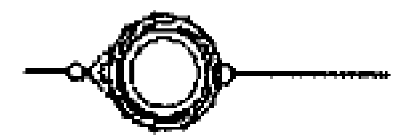
---

(1) ـ ما زاد يحتفظ به في الخزينة .

(2) على رفع الدابة : على ارتفاعها . والعدل الكيس يوضع فيه الطحين ونحوه .

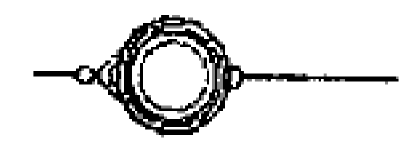
(3) كذا وردت ، واحسبها العذاب . وفي تاريخ المعلوف : والضرب .

ينطلق عندهم بمال ولا بشفاعة أبدًا ؛ لأنها مرفوعة من بينهم ، ويعطوه ورقة في تاريخ المدة ، ومتى ما نفدت يطلقوه ، لا ناقص يوم ، ولا زايد يوم . حتى بعض الذنوب شرطوا عليه أربعين سنة في الغراب[1] ، وبعضهم مدة حياتهم ، أو أقل أو أكثر على قدر ذنبه . حتى الذنب الخفيف يكتبوا عليه أنه لا يطلع من بيته مده شهور معلومة .



شروط نقل السلاح

ومن عوايدهم ما أحدًا[2] يقدر ينقل عدّة[3] في بلادهم ؛ إذا لم يأخذ تمسّك[4] من الحاكم ، وعلى نقل العدة شي معلوم في السنة ، وهذه من أهل المدن والرعية الذي له خاطر في ذلك - وأما العسكري الذي تحت العلوفة إذا نقل عدّة ما عليه شي .



من عاداتهم في الحروب

ومن عوايدهم أن الحاكم إذا مشى على حاكم في كون[5] ، والقوي منهم إذا دخل على بلاد عدوّه ما يمكن أحد من عسكره يمدّ يده إلى رعيّة عدوّه ؛ لا في طير دجاج ، ولا في بيضه بغير ثمن ، ولا يخرب من الرعية بلد ، بل يجوا يبيعوا ويشتروا على العسكر ، بل إذا صار كون بين العسكرين ، وانكسر أحدهم ، ودخل إلى قلعة ، وانحصر في مدينة فإن قوي البرّاني على الجوّاني ، ياخذ الجواني لها شروط ،

---

(1) كذا وردت ، واحسبها العذاب .

(2) كذا وردت وفي تاريخ المعلوف : أحد .

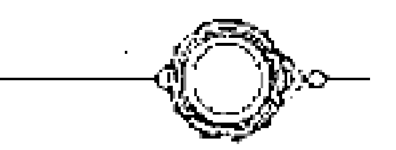
(3) العدة هنا بمعنى السلاح .

(4) التمسك هنا بمعنى الرخصة .

(5) الكون : الحرب .

وشروطهم وأقوالهم ما فيها تغيير ولا تبديل . وإذا صار تبديل أو تسليم تضل[1] البلاد العامرة على عادتها ، وإن كان الجواني متمكّن وما يقدر عليه البراني ، ورحل عن المدينة يطلع حاكم البلاد لبلاده يلاقيها عامرة على عادتها ، كل شي يكون من عوايدهم من زمان ، ما يقدر أحد يغيّر شي من المعتاد القديم .

ولهم عوايد شتّى ، وضبط وانتظام وعمارة لبلادهم . ولهم كتب في تفصيل ذلك ، وفي الحكم والحكومة يمشوا عليها .



الطباعة

وكذلك في بلادهم يطبعوا كتبهم الذي بلسانهم ، وفي لسان العربي ، والطبع له قوالب مربعة ، والحرف في راس القالب ، وكل حرف له قوالب عديدة ؛ يعملوا لوح من خشب له تاريز[2] على طول القالب الذي فيه الحروف ، وإذا أرادوا يعملوا كتاب يصفّوا الحروف على جميع الكلام الذي في صفحة الكتاب ، وعلى صفّ كل صفحة شاهية كرى[3] ، وإذا انفضّوا من صفّ الصفيحة[4] الذي مرادهم ينقلوها يدهنوا الوجه بالحبر ، ويكون الحبر محطوطًا في إناء ، وفوق القوالب على قدّه خشبه بلولب ، يحطّوا ورقة البياض فوق القوالب ، وإذا كبسوا الخشبة في اللولب ؛ تطبع الورقة على الحروف الذي وقعوها ، ويقيموا الورقة ، ويحطوا ورقة غيرها ، وهلم جرا ، يحطّوا أوراق ، ويكبسوها حتى تنطبع على هذا المنوال ، حتى إذا أرادوا ألف كتاب يطبعوا ألف ورقة على فرد كلام ، ومتى تخلص من طبع الألف ورقة على قدر ما يريدوا عدد الكتب ، يخربوا القوالب ، ويصفّوه على حروف الصفيحة الذي قباله على

---

(1) تظل . أثبتناها على صورتها كغيرها من الأخطاء الإملائية واللغوية .

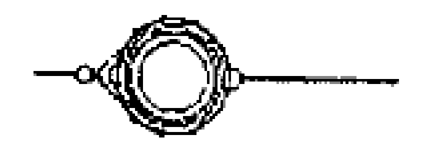
(2) تاريز بمعنى إطار .

(3) أجرة صف الصفحة الواحدة شاهية واحدة ، وهي منسوبة إلى شاه العجم وتساوي ثلاث بارات وثلثاً . (المعلوف) .

(4) كذا وردت واحسبها تصحيفاً والصواب الصحيفة .

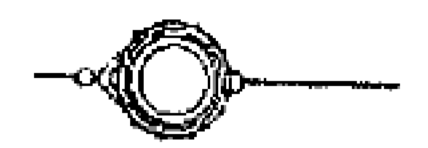
هذا المنوال حتى يخلص الكتاب الذي مرادهم ينقلوا عليه ، ويعودوا يوفقوا الكتب الذي طبعوها ، كل كتاب وحده ، ويضبطوه ، ويبيعوه .

بهذا الوجه الكتب رخيصة عندهم في بلادهم ، لأن كتاب قانون ابن سينا في الطب وعظمه[1] ، في جلد واحد يباع عندهم بسبعة أو ثمانية غروش . والناس يظنوا أن الطبع كل ورقة لها قالب ، بل كل حرف له قوالب عدة ، حتى كل ما احتاجوا حرف يحطوه في محله ، لأن السطر يحكم[2] فيه كذا وكذا نون ، على هذا المنوال ، والحروف على عدد حروف الألف با تا ثا إلى آخره .



زراعة الكتان وصناعته

وفي بلادهم يزرعوا الكتان ، وكذلك في جميع بلاد النصارى ، ويعملوا منه قماش قمصان ، وخيطان ، وقماش عال يعملوا منه الياقات[3] ، كل دراع يصل ثمنه للغرش وأزيد .



طريقتهم في غسل الثياب وتنظيفها

وكل قماشه يغسلوه في الرماد ، ويخيطوه بكتان ؛ لأنه إذا كان مخيط بحرير ينهري[4] من الرماد . وغسلهم في الرماد ؛ يجعلوا القمصان واللباسات[5] ، والملايات ،

---

(1) طبع كتاب القانون في الطب لابن سينا في رومية سنة 1593 في أربعة أجزاء ، ثم طبع في بولاق سنة 1877 في ثلاثة مجلدات بعناية ابراهيم الدسوقي . وصاحب الكتاب هو الشيخ الرئيس الفيلسوف الطبيب المتوفى سنة 428 هـ = 1036 م . (المعلوف) .

(2) يحكم بمعنى يرد .

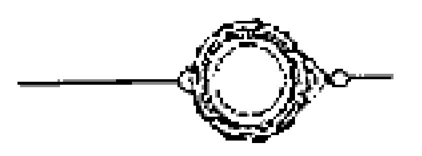
(3) مفردها ياقه وتعني القبة .

(4) اهترى الثوب وانهرى بالعامية : بلي .

(5) اللباسات تعني السراويل .

والمناديل ، وكل شي يُغسل ، ومخيَط بكتان ، يجعلوه في جصاطر مبزولة ، ويغلوا الرماد في الماء ، ويسكبوه على التياب غمرها[1] ، ويبيّتوه ليله ، ويطالعوا الماء من البزال ، ويسخّنوا الماء ، ويسكبوه على التياب مرة ثانية ، وإذا لزم الأمر مرة ثالثة حتى ينظف ماؤه ، وحتى يعلم أنه ما بقي في التياب لا دبغ[2] ولا وسخ . وإذا طالعوا التياب يعطوا على الماية قطعة تياب مقدار قالبين صابون حتى يلحلحوهم زوم[3] خفيف ، وينشروه . وإذا طووه يحطّوا بينه زهر خشبه[4] صفره تسمى خزام ؛ فيطلع الغسيل نظيف ، ورايحته طيبة ، وفي غاية البياض من غير كلفة زايدة .

وجميع الرماد الذي يطلع في بلادهم لـه بيّاعين يدوروا فيه ، وكذلك يعملوا من الرماد والزيت والقلي صابون يطلع لونه أحمر مثل الحلاوة النشاوية[5] ، ويدوروا يبيعوه في الصطول[6] ، وإذا باعوا منه يشيلوه في الملعقة ، وإذا غسلوا منه يبقوا يشيلوا منه على أصابعهم ، ويدهنوا منه على الثياب ، وإذا فركوه على الثياب تطلع له رغوه مثل الصابون القالب ، وتنظف الثياب من غير كلفه زايده .



الطرق وخدماتها، ونظام اجتياز الحدود

وأما طرق بلادهم منظّفه معموله إلى ساير النواحي ، ولجميع الطرق ناس تحت العلوفة[7] دايمًا لأجل صلاحهم ؛ حتى تبقى العربات تسلك بهم ، وفي راس كل

---

(1) غمرها : مقدار ما يغمرها .

(2) الدبغ تعني البقع التي تصعب إزالتها .

(3) قالب الصابون : القطعة منه ، واللحلحة : فرك الثياب بالصابون ، والزوم عند العامة : غسل الثياب مرة واحدة . والمقصود هنا غسل الثياب بالصابون بعد غمرها بالماء والرماد .

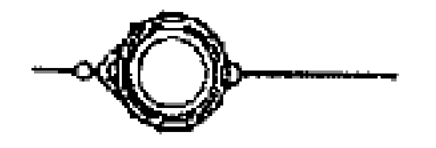
(4) لعلها عشبة .

(5) الحلاوة النشاوية : نوع من الحلواء يصنع من النشا والسكر أو الدبس .

(6) السطول مفردها سطل : إناء نحاسي له علاقة (فارسية) والعامة تلفظه بالصاد .

(7) العلوفة : الراتب الدائم .

طريق على حدّ بلاد الحاكم يحطّ ناس عسكرية ، ولهم بيوت ينظروا الطرق في الليل والنهار ، وفي راس الطرق عامودين من كل ناحية عامود ، وفيه جنزير[1] حديد من العامود إلى العامود يقفلوه في الليل ؛ حتى لا تعدّي الدواب[2] إلا بعلم الواقفين . وكل من عدّا وما معه ورقة إجازه من حاكم المدينة مختومة وإلا يمسكوه . وكذلك كل من ميّل[3] عن الطريق ينقام عليه الصياح من كل موضع ، ويمسكوه ، ويقولوا له : لو ما يكون لك ذنب ما ميّلت عن الطريق ، ولا أحد يقدر يميّل إلى بستان أحد إلا بإجازته .



الصيد وأنواعه

وأما أنواع صيد بلادهم كثيره ، وعندهم كلاب كبار ، كل كلبين يعملوهما في شباق[4] مع رجّال ، ويربطوا في الكلاب على أطراف الهيش[5] ، ويكون ربط ثاني في كلاب مثل ذلك ، فإن طلع الخنزير أو الأيل الذي سلاحاته[6] مشعبه ، يطلقوا عليه الكلبين ، فإذا كان ما فيهما إليه يصل إلى الربط الثاني ، ويطلقوا عليه الكلبين الثانية ، والأربع كلاب المذكورة يمسكوا أكبر الوحوش من خنزير وغيره ، ويهدّوه[7] حتى يصل الرجّال يضربه بالسيف ، أو بالقواس ، الوحوش بالبندق ما هي عندهم عاده ، وكذلك صيد الأرانب بالسلاقيات[8] : يجمع الحاكم أو غيره مقدار عشرين

---

(1) الجنزير : السلسلة (فارسية) .

(2) تعدي : تمرّ .

(3) ميل عن الطريق : انحرف عنه .

(4) الشباق : الرباط

(5) الهيش : مجتمع الشجر أو ما يسمى الحرج .

(6) السلاحات : القرون .

(7) يهدوه بمعنى يوقفوه .

(8) الكلاب السلوقية : الكلاب التي تستخدم في الصيد لخفتها وضراوتها .

ثلاثين رجّال بالكري ، وكري كل رجل عادته كل يوم شاهيّه ، ويكونوا ازلام[1] ، مع كل رجل عصا طويله ، ويصطفّوا صفةً واحدة ، ويبقى الرجل يضرب في العصا يمين وشمال ، ويكون من كل ناحية كلبين مع رجل خيّال وزلمه ، ولهم ربط ثاني بعيد ، فإذا طلع الأرنب يطلقوا عليه كلبين لا غير الربط القريب إليها . وإذا لاقوا الأرنب رافقه[2] على الكلبين الذي في الربط الأول ، يطلقوا الكلبين الذي في الربط الثاني . وأكثر من أربع كلاب ما يطلقوا عليها . وكذلك صيدهم على الطيور ، ويصطادوا الحجل والدرّاج والبط ، وكذلك يصيدوا البط في النهوره في شخاتير بالبندق[3] ، ويقوّسوا البط وهو طاير بالخردق[4] ، وكذلك البرك الكبار فيها بطّ يضربوهم في زربطان[5] على بعد بخردق ، ياخذوا على عربه .

وكذلك يصيدوا الطيور في الليل في ضو السُرُج[6] ، ولهم سُرُج مختصة لذلك ، ويضربوهم بقوس البندق ، ويكون قوس البندق الليل رخوًا أكثر من قوس النهار حتى لا يضر الطير . وإذا وقع الطير بين الزرع والعشب يكون معهم زغاريات[7] صغار ، قوام يروحوا يشمشموا عليه ، يحمله في فمه ، ويجيبه إلى صاحبه .

وطير السُمَّن والزغزغان[8] شي كتير ، وكذلك الفريّيه[9] صيده منه بكثرة ، وإذا أرادوا صيده يحصدوا حقلة الزرع ، ويخلّوا منها موضع بلا حصيد ، ويخلّوا الفرّ حتى

---

(1) ازلام : أي رجال أشداء .

(2) رافقة بمعنى متفوقة وقادرة على التخلص منهما .

(3) النهورة جمع نهر وهي تحريف نهور . أما البندق : كرة يرمى بها (فارسية) .

(4) الخردق : كرات رصاصية صغيرة تحشى بها البنادق مع البارود ليرمى بها الطير ونحوه .

(5) الزربطان والزربطانة آلة جوفاء يرمى بها البندق .

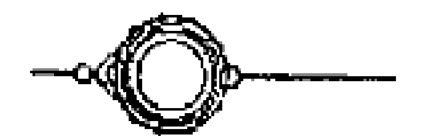
(6) السرج جمع سراج .

(7) الزغاريات مفردها زغاري نوع من كلاب الصيد الخفيفة .

(8) الزغزغان : الزاغ ضرب من الطيور .

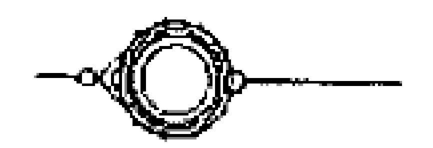
(9) طائر الفري : طائر يكثر في الشام في الربيع والخريف لونه أربد وهو سريع الفر ، ولعل اسمه مأخوذ من الصوت الذي يحدثه أثناء فراره .

يتخبّا في الزرع الذي ما انحصد ، ويرموا عليه الشباك . وكذلك لهم شباك مصنوعة لأجل صيد الطير ، ولهم مواضع في الهيش ينصبوا في طرقه أربع جوارات[1] ، ويحطّوا الشباك من جوره إلى جوره ، ويكشّوا[2] الطير من الهيش ، وإذا عدّا يعلق في الشباك . وكذلك أيام الزيتون إذا نقّوا[3] الكرم يخلّوا منه واحدة بلا لقط[4] ويلبّسوا الشباك على جميع الزيتون ، ويربطوا الشبكة على كعب الشجرة ، والشبكة من فوق مفتوحة ، فإذا جاء الذلم[5] ، وحط[6] على الزيتونه لياكل منها ما يعود يهتدي على الموضع الذي نزل منه ، ويبقى جوّات الشبكة[7] ، ومعلّق فيها .



الزيتون: تربيته وقطافه

وجميع زيتونهم يشيلوا اليابس منه ، ويربّوه على التدوير[8] ، وجميع زيتونهم لا يفرطوه بالعصا[9] بل يجعلوا سلّم ، ويطلع الرجل وفي يده مقصّ ، ويقصّوا جميع زيتونهم في المقصّ .



عودة إلى الصيد

ويحطّوا طيور في أقفاص من ساير الجنوس ؛ حتى كل جنس يجي إلى عند

(1) صوابها جورات جمع جورة وهي الحفرة وقد سبق شرحها .

(2) يكشوا الطير : بمعنى يطردونه .

(3) نقوا هنا بمعنى قطفوا .

(4) اللقط : القطاف .

(5) الذلم : الحمام البري .

(6) حط بمعنى جثم أو وقف .

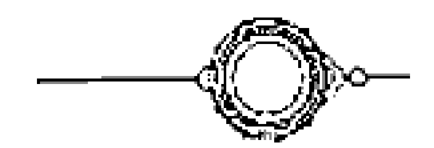
(7) جوات الشبكة : داخلها .

(8) يجعلوا الشجرة مدورة بتهذيب أغصانها .

(9) الفرط هنا بمعنى القطاف .

جنسه ، ويصْلُوا[1] حول الأقفاص بالدبق والشَرَك من شعر ، ويصْلُوا على الشجر .

وأمــا صيد السمك أنواع منوَّعة ، حتى يصيدوه من داخل البحر ، ويحطُّوا جاروفة[2] الشبك ، ويربطوها في مقدم المركب ومؤخّره ، وللمركب قلاع يمشُّوه بالعرض ، وبهذا الوجه ياخذوا السمك من داخل البحر . وكلّ سمك وله عندهم سعر ، ويصبغوا الشبك ، وبعض شباك صغار ، ويعملوها من حرير لأن الحـــرير أمكـــن[3] ، ويعملوا سنانير[4] مربوطة في حبل ، ويربطوا الحبل من قاطع النهر إلى قاطعه ، والسنانير مربوطين في الحبل ، ويدندلوهم[5] بكثرة . وكذلك يعملوا جواريف في حبال طويلة ، ويكون لهم ناس يسحبوهم من البر ، وفي البحر شختورتين ، حتى قالوا إنها تكلّف الجاروفة والشختورتين أربع ماية شكوت تبلغ خمسماية قرش أسدي أبو كلب ؛ لأن الجاروفه حبالها طولهم ميلين ، وبعض الطرق[6] يطلع لهم قناطير سمك ، وما أحد يقدر يبيع سمك حتى يعطي للحاكم المعلوم عليه . وعندهم ضبط وطاعة في ساير الأمور .



مزارع السمك

وفي اليفورنا مينا داخل الصور تدخل إليها الأغربه والمراكب والشخاتير ، وفي جانب المينا معمّرين موضع ثلاث حيطان ، والوجه الذي صوب البحر عاملين له شبَّاك مخرَّم رفيع ، وماء البحر داخل فيه من الشبابيك ، ومطلقين فيه سمك بكثرة ،

---

(1) يصلوا من صلى أي نصب الشرك للطير وهي فصيحة

(2) الجاروفة : نوع من الشبك الكبير .

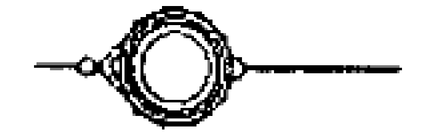
(3) أمكن : أقوى وأمتن .

(4) السنانير مفردها سنارة وهي الآلة المستخدمة في صيد السمك .

(5) دندل بمعنى دلدل أي تدلى وتهدل والأولى محرفة عن الثانية .

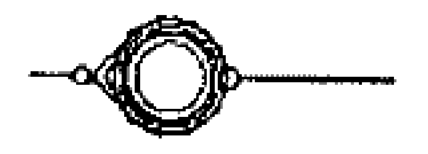
(6) بعض الطرق : بعض الأحيان .

وما يقدر السمك يخرج للبحر من ذلك الشبّاك لأنه مثل الشعرية[1] ، وذلك لأجل الاحتياج أي وقت أرادوا يشيلوا منه سمك على الخاطر .



آلة تنظيف الميناء

وللمينا المذكوره جنزير حديد من الصور للقلعة يقفلوه في الليل ، ولها شخاتير لأجل تعزيل[2] الأسكلة ينزلوها إلى حد الأرض ، ولها لولب لما يرخوه يفتح ، وله أصابع مشبّكة في بعضها بعضًا ، وهو نازل يفتح ، ولما يسدوه يطلع يكمش[3] ، ويطبق على جميع ما يحوشه ، ويطالعوه في اللولب إلى شختور ثانية تفتح في لولب ويرمي كل شي ضمّته وطالعته ، ويعودوا على ذلك مرة ثانية وثالثة ، وإذا مليت الشختورة من الزبل والقش والرمل وغيره ، يسحبوا شختورة ثانية إلى داخل البحر ، ويرموا ذلك لأجل تنظيف الأسكلة حتى لا تنطم[4] .



السمك والبطيخ المثلج

وكذلك في فرنسيا برك فيها سمك في أيام الشتا تجلّد من الثلج هذه البرك فيقطعوه بآلات الحديد ، ويخزنوه في بياره[5] تحت الأرض ، ويبيعوه أيام الصيف . والبطيخ المليح يحطوه على هذا الجليد ويبيعوه بأزيد سعر عن غيره .

---

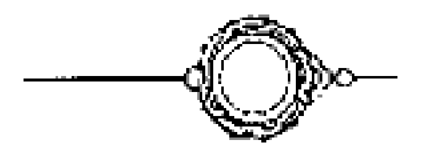
(1) الشعرية : حاجز مشبك يصنع من دقاق الخشب أو الشريط المعدني .

(2) التعزيل : التنظيف .

(3) يكمش بمعنى يمسك .

(4) تنطم : تمتلئ بالرمل والنفايات .

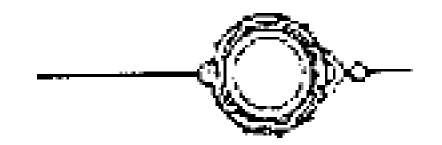
(5) بياره : آبار .



لأن في اليفورنا زندانات لليُسَرَه[1] ، وهي أربعة أقبوة[2] طوال ، ولهما دار في الوسط سماويه ، وفي وسط الدار عامود إذا أخطا الأسير يربطوه في العامود ويضربوه . ولها أوض[3] فوق الزندانه لأجل الحراس ، ومنفذهم من غير عند الأسارى ، وفي أرضهم طيقان[4] ترمي إلى تحت الزندان حتى متى تحركوا الأسارى يعرفوا فيهم الحراس ، وباب الزندان من عند الحراس من فوق مثل المشاط ؛ حتى لا تقدر الأسارى يفتحوه ولا يغلقوه . ولهم قبابطين ورديانات[5] يفرقوهم من باب الزندانه بدفتر إلى بنيان ومصالح الحاكم ، ومن عشيّه يلموهم في دفتر . والزندان له طبقات من خشب .

وذكروا أن في هذا الزندان من المسلمين ومن المجرمين من النصارى أزيد من ثلاث آلاف ، ولهم ستة أغربه مهما احتاجوا ياخذوا من هؤلاء الأسارى وقت سفرهم . وجميع من في الزندان يزبّلوا في براميل باغطية ، ويرفعوها الأسارى ، ويرموها برّات الصور .

وذكروا أنهم مضمّنين زبلهم كل سنة بألف غرش ، وإذا انهزم أحد من الأسارى ياخدوا تمنه من الورديان .



القرصنة ولوازمها

والغربا إذا سافروا للقرص ما ياخدوا معهم إلا القادر على حاله ، وما يحطُّو في

---

(1) الزندان : السجن (فارسية) واليسرة : الأسرى جمع أسير .

(2) أقبوه تعني أقبية ومفردها قبو وهو بيت معقود سقفه بالحجارة .

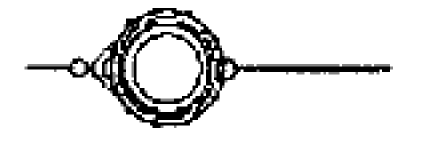
(3) أوض مفردها أوضه الغرفة والكلمة تركية الأصل .

(4) طيقان جمع طاق : النافذة (فارسية) .

(5) قبابطين جمع قبطان : ولعله أراد الرؤساء والمديرين . أما الورديان فهو حارس السجن (تركية) .

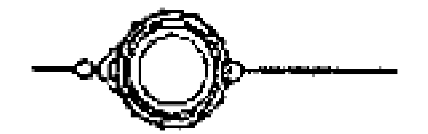
الأغربة غير البقصماط والماء والشراب ، وكبوت الأسير[1] ، وبدله للعسكريه ، وذلك لأجل الخفة ، وقبطانة الأغربة يجعلوا من المؤخر إلى دورة الصاري على كل مقداف سبع أسارى ، ومن الصاري إلى المقدّم ستة ستة ، وعنده دروع وخود ما يقطع فيها الرصاص ، والدروع إلى الزنار فرد صفيحه ، ومن قدّام مثل صدر الوزّه ، ولهم أتراس كذلك .

نظام الجندية



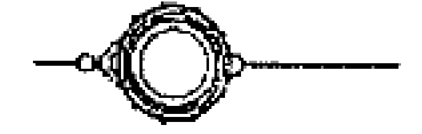
ومن عوايد بلادهم أن الحاكم يكتب عسكر من بلاده غير الغُربّيه[2] ، ويوقفوا لهم ناس يعلّموهم رمي البندق ، ونقل السلاح ، ويبقوا على هذا الحال سنتين ثلاثه حتى يكمّلوا تعليم ذلك ، ويعودوا يروحوا إلى أشغالهم ، ويجيبوا ناس عوضهم من بلادهم ، ويعلّموهم نقل السلاح مثل الأول ، ويبقوا على هذا الحال حتى يعلّموا جميع أهالي بلادهم نقل العدّة والسلاح .

الحطب



وفي فرنسيا بلد الغران دوكا كل قنطار حطب بقرش ، والحطب كذلك يبيعوه بالدراع ، يسمّوها قانه ، طولها ست أذرع ، وعرض ذراعين . كل حطب له سعر ، وخير الحطب الملّول الزند[3] المتساوي ، والدجاج عندهم بالميزان .

سلطان إسبانيا يدعو الأمير فخر الدين إلى مسينا



ولما كان الأمير فخر الدين في فرنسيا عند الدوكا حاكم طوسقانا جاء مكاتيب من

(1) الكبوت : رداء سميك يلبس فوق الثياب لاتقاء البرد (إيطاليه) .

(2) الغربية تعني الغرباء .

(3) الملول : شجر البلوط .

باشة مسينا الذي هو تحت يد سلطان إسبانيا خطابًا إلى الغراندوكا يذكر جا أمر من سلطان إسبانيا يأمره أنه يطلب حضرة الأمير فخر الدين من الغراندوكا يرسله إلى مسينا ، فأرسل الغراندوكا جماعته لعند الأمير ، وأعلمه بذلك ، وقال له : سلطان إسبانيا أمر بأنك تروح لعند باشة مسينا ، وانت كيف خاطرك؟ فقال لهم : إن أمرتونا نروح ؛ فقالوا له : نحن ما نكلّفك لا في الرواح ، ولا في الإقامة ؛ أغربتنا رايحه إلى مسينا ، انكان لك خاطر حتى نرسلك بها ، فأعطى رضا بذلك ؛ فكتب الغراندوكا مكاتيب إلى باشة مسينا يوصيه في الأمير ، وأعطاه سناسل[1] ذهب يقال له عندهم جنزير ، قيمته ثمانماية غرش ، وأما الحاج كيوان ما طاوع على الرواح مع الأمير إلى مسينا ، وبقي في فرنسيا .

وودّع الأمير الدوكا الوالدة ، وتوجه إلى اليفورنا في الأغربة ، وقدّموا له ذخيرة ، وجميع ما يحتاج لبين ما يصل إلى مسينا[2] .

---

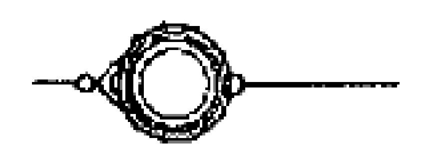
(1) أي سلاسل ذهب .

(2) ذكر الخالدي في تاريخ الأمير فخر الدين هذه الحادثة بقوله :

« وفي غرة شهر جمادى الثاني من السنة المذكورة (1024 هـ = 1615 م) دخل إلى مدينة الشام جركس محمد باشا بكلر بكيها ، وفي الحال أطلق والدة حضرة الأمير فخر الدين ، وأرسلها إلى ولدها الأمير يونس ، وكتب مكاتيب للأمير فخر الدين يرجع إلى بلاده ، وأهله وأولاده . وتوجه بها الشيخ شهاب الدين ابن عون ، والشيخ يوسف ابن المسلماني ، ولم يكن عند كل واحد منهما تواهن . وتوجها هما ومن معهما في مركب فرنساوي إلى مدينة الكرنة من بلاد اغران دوكا ، وكان قبل وصولهم بعشرة أيام توجه الأمير فخر الدين إلى مدينة مسينا من جزيرة صقلية من حكم سلطان اسبانيا ، لأنه أرسل إليه ، وكلفه المجي إلى بلاده .

وقد كان زعل الأمير فخر الدين من بلاد اغران دوكا ؛ فأراد أن يشرح صدره ، ويفرج عن فؤاده . فلما توجه إلى بلاد اسبانيا افترق عنه الحاج كيوان فعاد مع الشيخ شهاب الدين ، والشيخ يوسف ، ووصل إلى أسكلة صيدا «ص 42 ـ 43» من تاريخ الخالدي الصفدي .

وصول الأمير فخر الدين إلى مسينا



ولما وصلوا إلى مسينا ، رأوها أسكله عظيمة تصل الغلايين لقرب البر ، ويحطُّوا خشب من البر للمركب لأجل الوسق[1] والتفريغ ، وأرسل الأمير اعلم باشة مسينا بوصوله ؛ فعيّن له دار قرب الأسكلة مشرفة على البحر ونُزّه المدينة ؛ فطالع اعياله واسبابه وجماعته ، وراح سلم على الدوكا ، فراعاه واستقبله مليح ، وطيّب خاطره ، وعيّن لـه عوض الماكله كل يوم عشر غروش ، وفي ذلك الوقت حكم عندهم عبيد يعملون فيه دكاكين قرب الأسكلة ، وتحت الدار الذي سكن بها الأمير ، وعملوا بيع وشرا بزياده خصوصًا بيع الحرير شي لا يوصف كثرته .

توجُّه الأمير فخر الدين إلى بلاده، وعودته منها

وبقا الأمير متشوّق إلى أخبار بلاده ، وطلب أن يتوجه لبلاده يكشف أحوال أهله وتوابعه والبلاد ، وطلب من الدوكا ذلك ؛ فقال له : غلايينا متوجهين للقرص لبلاد الشرق على عادتهم ، نوصّيهم يوصلوا معكم لبلادكم ، وخذ معك بعض ناس من جماعتك ، وباقي جماعتكم يبقوا عند اعيالكم بالعزازة[2] لبينما تعودوا ؛ فأعطى الأمير رضا بذلك ، والدوكا تدارك له بذخيرة جميع ما يحتاج .

وسافروا الثلاث غلايين ، وحصل للأمير بعض ضعف ، وتعافا منه ، فجا وصول الغلايين ما بين صور والناقورة ، ونزل الشيخ خاطر ابن الخازن من عجلتون كسروان بحال الليل متوجهًا لدير القمر يُعلم بمجي حضرة الأمير ، واوعدهم إلى الدامور ، ومشي المذكور وجه الصبح فتلاقا مع رجّال من جماعة أخيه الشيخ أبو نادر عند عين دير بسيم اسمه يعقوب من قريتهم عجلتون ، فتعارفا وتسالما ، وسايله من حاكم بلاد صفد اليوم؟ فقال : حضرة الأمير يونس ضامنها من حاكم صيدا ، وموقّف أخوك

---

(1) الوسق : وضع الحمولة في المركب وهو ضد التفريغ .

(2) العزازة : التكريم .

صوباشيًا[1] بها ؛ ففرح بذلك ، وسايله عن بقية الأمور ، وما كان معهم من علم كيف صار في غيابهم .

وتوجه هو وإياه إلى دير القمر ، فلما وصل إلى عند حضرة الأمير يونس ، وبشّره بسلامة أخيه ، وأنه توجّه في ثلاث غلايين ، واعلمه بالميعاد ؛ فصار في جميع الشوف فرح زايد ، وانشراح خاطر ، ونوّرت البلاد لأنه كان مضى زمان ولم يجي من حضرة الأمير مكاتيب ولا علم ، ففي الحين نزل حضرة الأمير يونس ، وأهالي الشوف قاطبة شيخها وفتاها إلى الدامور ، ونزل الشيخ خاطر معهم ، وكان عاطيه حضرة الأمير ثلاث سهوم[2] مصنّعين في البارود ، إذا تعلّق أحدهم بنار يطلع للجو طلوعًا عظيمًا ، ويظهر منه شعاع . وقال له : لما تصل إلى الدامور والرجال معك ، أعطي هذه الثلاث سهوم النار الواحد بعد الواحد حتى نتحقق وصولك ووصول الرجال بوصولهم إلى الدامور ؛ ففعل كما ذكر بالسهوم ، فنظروهم من البحر ، وقرّبة[3] الغلايين إلى البر ، وارموا المراسي وصارت الغلياطه[4] تجي إلى البر تاخذ سربة[5] رجال يسلّموا على حضرة الأمير وينظروه ويردّوهم للبرّ ، وياخدوا سربة غيرهم .

وأما حضرة أخيه الأمير يونس تم عنده[6] في الغليون إلى الآخر ، وأعلمه بجميع ما صار وصدر مفصلاً . وداموا على هذا الحال ينقلوا في كل نوبة في الغلياطة عشرين رجلاً ، وبعد ردّهم ياخدوا غيرهم ، وأزيد من عشرين نفر لا ياخدوا ؛ لأن من سيرتهم التفحّص والتحذر من كل الأمور[7] .

---

(1) الصوباشي : ضابط البلد من قبل السلطان (تركية) .

(2) جمع سهم وهو مقذوف محشو بالبارود يصدر عند إطلاقه أضواء ملونة دلالة على شيء ما أو للزينة .

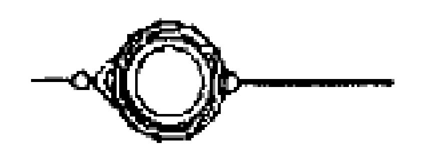
(3) اقتربت .

(4) الغلياطة : القارب .

(5) السربة : الجماعة .

(6) تم عنده : بقي عنده .

(7) يعني بالتفحص والتحذر : الدقة والحذر .



وقد تكلّم حضرة الأمير يونس، والأمير ناصر الدين، وبقية المشايخ مع حضرة الأمير، وقالوا له: جميع أهل الشوف جَرْد[1] الكبار والصغار، وبقيّة بني قيس، الجميع في البر، ومرادهم ينظروك، ويبلُوا شوقهم من رؤياك، ومتعطشين إلى شوفتك، والجميع لهذه الساعة منتظرين قبال الغلايين[2]، وما يصير لهم نوبه في القدوم، لأن إذا داموا بكل نوبه[3] عشرين، ولا بشهر زمان ما فيهم ينقلوا الجميع؛ فإذا رسمت ورأيت مناسب نحن نتكلّم مع القبطان، ونطلب منه إجازه، ونقعد نحن عوض سعادتكم في الغليون، وانت انزل إلى البر حتى تنظرك جميع الناس، ويقبّلوا أياديك، وتتعوّق عندهم ثلاث أربع ساعات، وتبقا تعاود إلى الغليون، وننزل نحن. فقال لهم حضرة الأمير: كلامكم صواب ومليح، لكن نحن لما فارقنا الباشا من مدينة نابل ما شاورناه على النزول للبر، ولا خطر ذلك في بالنا، والقبطان ما يفعل هذا الشي بغير أمر استاذه[4]؛ لأن النصاره عندهم طرايق وأحوال غير سمت ديرتنا[5]. فقالوا له: لا بد اننا نتكلم بذلك؛ فقال لهم حضرة الأمير: جايز، فتقدم الأمير ناصر الدين، وكلّم القبطان بما شرحنا، فقال القبطان: من عادتنا ما نفعل شي أزيد ولا أنقص مما وصّانا به وليّ نعمتنا، وبهذا أوصانا صاحبنا، وغيره ما يكون شي. فقصروا عن الكلام، ورجعوا ودّعوا حضرة الأمير، وعاودوا إلى البر، وكان ذلك في السنة المذكورة سنة أربعة وعشرين وألف[6].

---

(1) جرد بمعنى الجميع.

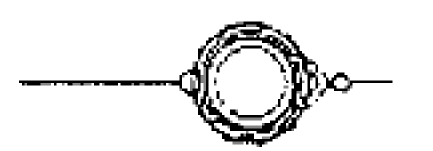
(2) قبال الغلايين: مقابل الغلايين.

(3) النوبة: المرة الواحدة.

(4) يعني الدوكا باشا نابل.

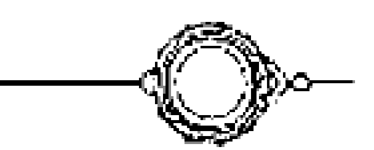
(5) السمت: العادة، والديرة: الديار.

(6) يقابلها بالتاريخ الميلادي سنة 1615.



عودة الأمير فخر الدين من زيارة بلاده

وتوجّهوا الغلايين يدوّروا على غنيمة يغتنموها[1] ، وكان اسم قبطانهم جنار[2] ، وتوجهوا إلى راس الخنزير قرب أنطاكية لأجل أخذ الما والحطب ، وجاعليهم فرتونة[3] ؛ فما قدروا ياخدوا شي من ذلك ، وتوجهوا ما بين جزيرة قبرص وبلاد قرمان حتى وصلوا إلى بر القرمان[4] ، أملوا ماء ، وطلع بعض ناس من الغلايين جابوا بعض بقر وجمال ، وتوجهوا من ذلك إلى جزيرة زنتوا[5] من تحت حكم البنادقة ، وموجود بهذه الجزيرة الزبيب الصغير قدّ حبّ الآس الأسود . ومنها توجّهوا إلى جزيرة الجفلونية[6] ، وأخذوا منها ما وحطب ، واشتروا بعض ذخيره .



نزول الأمير في مالطه ومراسم استقباله

ومنها توجهوا إلى جزيرة مالطه[7] ، ولها أساكل عظيمات ترسي فيها الغلايين والمراكب ، ويقفل عليهم جنزير من حديد . وأرسلوا عزموا حضرة الأمير فخرالدين ابن

---

(1) أي يبحثون عن غنيمة .

(2) الجنار : تحريف الجنرال Generale

(3) الفرتونة : الإعصار البحري وقد سبق شرحها . وجاعليهم بمعنى داهمهم .

(4) بلاد القرمان أو الكرمان في الأراضي التركية المقابلة لجزيرة قبرص من الشمال في جبال طوروس وحاضرتها مدينة كرمان .

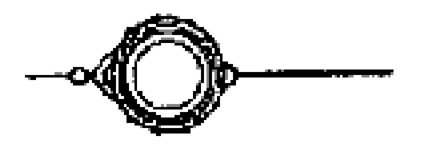
(5) زنتوا أو زنتة : جزيرة يونانية محاذية لشبه جزيرة المورة .

(6) الجفلونية : هي جزيرة كفالونيه جزيرة يونانية تقع غربي اليونان في مواجهة خليج كورنته وهي من جزر البحر الأيوني . والآس شجر دائم الخضرة ، زهره أبيض وثماره صغيرة ولذيذة منها البيضاء والسوداء ، ويعرف حبه عند العامة بالحنبلاس .

(7) مالطة من جزر البحر المتوسط استعمرها الفينيقيون والقرطاجيون ، والرومان والعرب الأغالبة في أوائل القرن التاسع الميلادي ثم أخرجهم منها الكونت روجر بن تنكرد ملك صقلية في أواخر القرن ==

معن على النزول إلى عندهم ، وشاور القبطان الذي معه ؛ فأعطى رضا بذلك ، وقبل عزيمتهم .

ولما نزل أرسلوا له قايق مخيم بالحرير[1] ، وصفوا له أكابر الناس من البحر إلى بلاص كران ما يسطروا[2] .



حاكم مالطه ورجاله

وهذا هو حاكم مالطه ، وأي من حكم الجزيرة يسمّوه بهذا الاسم . ومن عادتهم أنه لا يتزوج هو ولا جميع الكوليرلية[3] الذي تحت يده ، ويبقوا بلا زواج على سمت الرهبان ، وهم لاوند الجزيرة[4] .

وقالوا : إنهم يجوا اثني عشر ألف ، وهم على سمت الإنكجارية الشام ، ولهم طريقة ، وزنار ، ويول[5] مثل السكمانية ، ولكن ما ينزلوا[6] في هذه الطريقة معهم إلا ذوي البيوت من بيوت الأكابر ، مثل أولاد الإمارة ، والمقدمين ، والمناصب ، وما شابه ذلك من جميع بلاد النصارى .

كل من له خاطر بصير كوليز يجيب معه حجة[7] من قاضي تلك المدينة ، ومن

== الحادي عشر الميلادي ، ثم احتلها فرسان القديس يوحنا سنة 1520 م وتمكنوا من صد الجيش العثماني الذي حاول احتلال الجزيرة سنة 1565. وكانت زيارة فخر الدين للجزيرة في عهدهم . واستمر حكمهم للجزيرة إلى سنة 1798 م حينما احتلها نابليون بونابارت في طريقه إلى مصر .

(1) القايق : الزورق (تركية) .

(2) كران مايسترو : القائد الكبير وهو رئيس فرسان مالطة .

(3) الكوليز : الفارس (إيطالية) .

(4) لاوند الجزيرة : الجنود غير النظاميين .

(5) يول لعله نوع من الملابس أو الشارات التي اتخذها هؤلاء الفرسان علامة لهم .

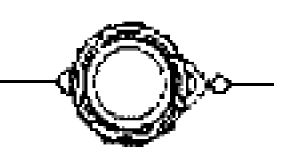
(6) ينزلوا : بمعنى يقبلون .

(7) الحجة بمعنى الوثيقة أو الشهادة .

أكابرها شهادة أنه ابن وجاق[1] ، ومن أعيان الناس ، ويتوجه إلى مالطه يعرض عليهم تلك المكاتيب . إذا استقبلوه ينزلوه إلى أغربة القرص[2] ، فيسافر بهم سنتين ، وبعدها يعمل لقمه[3] ، ويطالعوه كولير . وجميع هذه الكوليرليه في بلاد النصارى نافدين الكلمة ، قويّين الدعوة ، ولهم توقير في كل البلاد ، حتى إذا صدر من أحدهم خطوة[4] في مدينة من المدن ما يقدر حاكمها يقاصره[5] بشيء ، ولا يعترض له ، بل يرسل مكاتيب لكبيرهم لمالطه الذي ذكرناه ، والمذكور يرسل له ورقة يطلبه إلى عنده ، بوصولها ما يقدر يخالف . ولما يصل يقاصره على ذنبه .

وإذا مات الكران ما يسطرو يجتمعوا ، ويقيموا لهم واحدًا من بعضهم الذي يلاقوه يليق ، وهو يصير عليهم وعلى الجزيرة حاكمًا .

وقالوا : إن في جزيرة مالطه اثنان وستين قرية ، ومدينتين لا غير ، لأن دور الجزيرة[6] ستين ميل .



تكريم الأمير فخر الدين في الجزيرة، وتعريفه بأبرز معالمها

ولما طلع حضرة الأمير فخر الدين ضربوا له جميع المدافع من القلعة والأصوار ، ولما وصل إلى عند كران ما يسطروا لاقاه ورحّب به ، وبقي عنده ثلاث أيام في الإعزاز والإكرام ، ونزهوه ، وفرّجوه على خندق المدينة الذي عملوه جديد ، وهو عظيم في الغمق والوسع . وجميع أزقات المدينة مفروشة بالبلاط . وفرّجوه على الماء الذي جابوه

---

(1) الوجاق (تركية) بمعنى الفرقه والمقصود ابن قائد أو ضابط كبير .

(2) الأغربه جمع غراب وهي سفن القراصنة ، والمقصود يخضعونه للتدريب على القرصنة لمدة سنتين قبل اعتماده رسمياً .

(3) المقصود باللقمة هنا الوليمة التي يقيمها الكولير تعبيراً عن فرحته بالانضمام إلى فرسان مالطة .

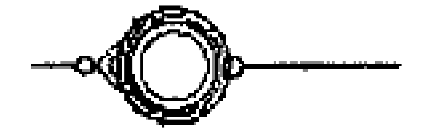
(4) الخطوة هنا بمعنى الخطأ أو الذنب .

(5) يقاصره بمعنى يحاسبه ويعاقبه .

(6) دور الجزيرة : محيطها .

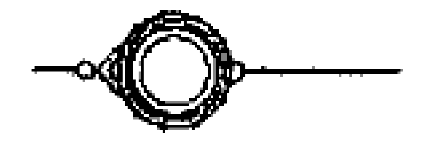
للبلد من موضع بعيد ، وعلى الجبخانة المغطيّة[1] ؛ لأن لها خُدَّام يخدموها ، مع كبرها ما فيها شي من الصدا من هوا البحر ، وعاملين طواحين الهوا . وطلبوا من الأمير أن يعملوا له ضيافة في بستان كران ما يسطروا ؛ لأنه من عجايب الدنيا ، فامتنع الأمير من الرواح إلى البستان ليلاً يصير لهم كلفة زايده ، ولاّ طوله[2] وفيما بعد عاد تندّم الذي ما راح ، وتفرّج عليه .

وداع الأمير



وودَّعهم ، واستكثر خيرهم ، ونزل للغليون ؛ فأرسلوا له على نوع الزُّوَّادة[3] من الغنم والدجاج ، والملبَّسات ، والحلّيات ، ومن البهارات والخبز ، والخضارات شي زايد .

من مالطه إلى صقلية



وأخدوا الخبر من مالطه لأن باشة مسينا الذي يسمى الدوكا توجه إلى مدينة بليرمو قاعدة جزيرة سقلّية ، وأن جماعة الأمير واعياله توجّهوا إلى بليرموا ، كذلك وأن الدوكا عيّن إلى عيال الأمير دارًا ؛ فعادوا الغلايين الثلاثة توجّهوا ، وطلع من أسكلة بلد يقال لها مازور ، بلد في طرف الجزيرة مقابل بلاد الغرب ، وفي هذه البلد الدجاج الكبار الذي يجلب منها إلى ساير البلاد .

وكانت غيبة حضرة الأمير في الغلايين من يوم نزل فيهم من مدينة مسينا حتى عادوا ، وطلع من البلد المذكورة سبع شهور إلا يوم واحد[4] ، وصار على المراكب فرتونه

---

(1) الجبخانة : السلاح ، والمغطية : المغطاة وفي تاريخ المعوف ، المغطاية .

(2) الطوله : الوقت الطويل . وليلا : لئلا .

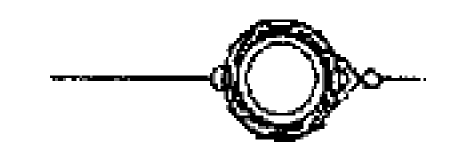
(3) الزوادة : ما يتزود به المسافر من الطعام للطريق .

(4) في بعض النسخ : إلا تسعة أيام .

وأهوالاً عظيمه من الهوا وأحوال البحر .

وفي هذه البلد جا قبطان كبير من جانب الدوكا حتى يمشي في خدمة الأمير إلى بليرموا ؛ لأجل الطريق ، وإقامة الذخيرة والاحتياج . ورحلوا من مازوره إلى بلاد كبيره ولها قلعة ، ومنها إلى بلد الكريك ، فلقا الأمير لبسهم على غير لبس الإفرنج ، سايلهم فقالوا : نحن كنا ساكنين تحديد المسلمين من بلاد جزر آل عثمان ، ومن كثرة الظلم والقهر رحلنا في مركب ، وجينا طلبنا من حكام بليرموا مزرعة ؛ فأعطونا هذا الموضع ، وهو خالي خراب ، فبقينا نحن وأهلنا واعيالنا وأولادنا نحطب ونبيع على المدينة حتى صار معنا صارميّة[1] ، واشترينا فُدُن ، واندرنا[2] إلى الزرع ، ونصسب المزرعة ، فلما كترنا ، واملينا المزرعة وأرضها في الفلاحة والملك ، طلبنا غيرها ؛ فاعطونا إياها وعمّرنا جميع أرضها ، فلما تزايد نشوها[3] طلبنا مزرعة ثالثة كذلك ؛ فأعطونا إياها وعمّرناها .

وهذه الثلاث مزارع كانوا خراب ، فقلنا لهم : كم أنتم اليوم نفس؟ فقالوا : نحن اليوم نجي ثمانماية رجل واعيال وأولاد . فقال لهم : كم لكم سنة بهذه البلاد؟ فقالوا : أزيد من سبعين سنة . فقال لهم : كم كنتم رجّال يوم جيتم؟ فقالوا جينا سبعين عيله ، وفي ذلك ما أحدًا يخفي مدخوله ولا قوته ، وكل من كان مدخوله أكثر يكون متقدم على الذي مدخوله أقل . وقصدهم في ذلك العمار .



وصول فخر الدين إلى بليرمو

ومن بلد الكريك المذكورة وصل الأمير إلى بليرموا لأنها بقربها ، فراح سلّم على الدوكا ؛ فترحّب به وسايله عن أهله وبلاده ، واحكا له بجميع الذي صار بالواقع ، وبما

---

(1) الصارمية : ذخيرة من المال .

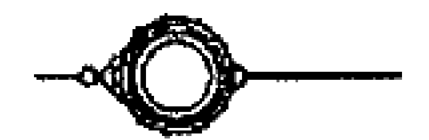
(2) فدن جمع فدان وهو من الدواب ما يستخدم في الحراثة ، واندرنا بمعنى توجّهنا .

(3) نشوها بمعنى نموها .

نظر وبما سمع[1] . فهذا ما كان من هولاي .

وأما ما كان من حضرة الأمير فخر الدين كنا ذكرنا قبل هذه على توجهه في الغلايين ، وعن عودته إلى عند اعياله وجماعته ، ووصل إلى مدينة بليرموا بالصحة والسلامة كما قدمنا بالكلام ، ونريد نذكر الآن جزوًا عن تلك البلاد كما انها عظيمه ، وذكر حضرة الأمير مفصلاً .

وصف المدينة وما شاهده فيها



وأما مدينة بليرموا مدينة عظيمة بصور ، لها أربع أبواب ، كل باب قبال باب ، ومن الباب إلى الباب سوق ، وكل باب ينظر إلى الآخر من غير اعوجاج . وفي وسط المصلّبة[2] قُبّة عظيمة يضربوا بها الناقوس . والماء داخل المدينة شي بكثرة ، وأسكلتها معتبرة ، وبساتينها وفواكهها كثيرة ، وغلّتها كذلك ، واللحم بها كثير ، وهي أرخص ذلك البلاد . ورأوا قاطن فيها اعيال مسلمين ، وبعض رجال من نسل حفص ملوك تونس الغرب[3] . ومجيئهم إلى عند سلطان اسبانيا مشهورة مفصلة في كتب التواريخ .

وفي هذه المدينة يصاد بها التنّ الكبير[4] ، ويعملوا له حبال شباك ، ولحم هذا السمك ياكلوه طري ، ويكبسوه بماؤه ويبيعوه في ساير البلاد .

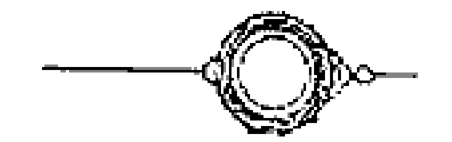
---

(1) الفقرة التالية إلى قوله مفصلاً محذوفة من تاريخ المعلوف .

(2) المصلبة : تقاطع الطرق .

(3) دولة الحفصيين حكمت في المغرب من سنة 603 هـ 982 هـ وأول من تولى منهم تونس عبد الواحد أبو بكر بن أبي حفص ، ثم دالت دولتهم على يد بني عثمان في زمن السلطان سليم بن سليمان القانوني .

(4) هو ما يسمى اليوم بالطون وبعضهم يقول التن والتونة .



ويوم الدوكا راح في أغربته يتفرج على صيد السمك كان معه حرمته ، وهو شاب[1] ، فأكثر التنافس مع دوكا مثله ، فالزمه بالكلام من غير أن أحد يعلم بهم ؛ فقال : انزل أنا وإياك للبر تتضارب ، فقال له : جايز ، فنادوا للغراب[2] ، ونزلوا للبر ، وطلعوا وتقاتلوا بالسيوف ، فأخوا امرأة الدوكا قتل إلى الدوكا الذي ألزمه . والدوكا الذي قتله له أخ ، فراح الدوكا الحاكم ياخذ في خاطر أخوه[3] ، وأخذ له معه ثمانية أسارى بخششه إياهم جبر خاطر[4] ، وكان الأمير ابن معن معه ، واعلم بجميع ذلك لأن العادة بينهم إذا طلع إلى برًا أحد ، وتقاتلوا على رجليهم ، يكون السلاح بينهم متساوي ، وإن كان أحد معه سلاحًا زايد عن الآخر يحتاج يتركه ، وإذا تضاربوا واحد منهم ذلّ من الآخر ورما سلاحه من يده ، ما يعود خصمه يقدر يضربه . وإذا أحد منهم كذلك أعطا ظهره ما يعود خصمه يضربه . وبينهم شروط على ذلك ، فالذي يعمل شي على غير الشروط يقتلوه عوض الذي قتله . وإذا أحدًا قتل خصمه على الشروط والقاعده ما عليه دعوى لا من حاكم ، ولا من أهل القتيل ؛ لأنهم يقولوا قبل ما يتضاربوا الاثنان راضيان على ذلك ، ما أحدًا يعرف الذي يُقتل منهم . إذا تنافس رجل مع الآخر ما يقول له اطلع حتى تتضارب برًا إذا لم يكن ندّه[5] ؛ مثلما يكون أمير إلى أمير ، وعسكري لعسكري على هذا المنوال .

---

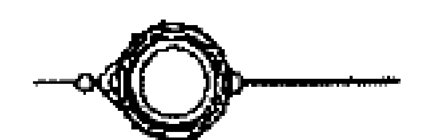
(1) أظن أن هناك كلمة ساقطة وهي : وأخوها أي حرمته وأخوها وهو شاب ..... إلخ

(2) كذا وردت ، وأحسبها الضراب .

(3) أي يعزيه .

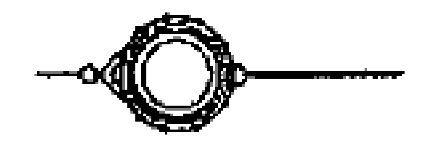
(4) أي قدم له الأسرى على سبيل الترضية .

(5) الند : المثل والنظير .



جامع إسلامي في بليرمو

وفي بليرموا برّات الصور جامع إسلامي من زمن الفاطميون لأن الجزيرة كانت في يدهم ، وبعده باقي على حاله بقبابه .



الانتقال إلى نابل

وبعد ما بقي حضرة الأمير فخر الدين ابن معن عند الدوكا أمونا حاكم بليرموا والجزيرة قريب سنة ، وجاء من سلطان إسبانيا أمر للدوكا أنه أعطاه نابُل[1] ، وهي أكبر وأعظم من جزيرة مسينا ؛ فقال الدوكا للأمير : نحن نتوجّه إلى نابل ، تروح معنا؟ فقال : نعم ما نفترق عنك إذا لم نتوجّه لبلادنا ، فقال : يصير لكم منّا رعايه أكثر ما كنتم ، روح احزم حوايجك ، وانظر مصالحك ؛ فراح الأمير حزم حوايجه ، ونظر مصالحه للسفر . فلما نزل الدوكا إلى الأغربه عيَّن للأمير غراب ؛ فنزل هو واعياله وجماعته . وكان جملة الأغربة ثمانية عشر غرابًا .

فقلعوا[2] من مدينة بليرموا ووصلوا إلى أسكلة في قرب نابل ، والكروم متّصله إلى وسط الأسكله . ولم يطلع أحد من الأغربة ياخد عنقود عنب أبدًا ، بل القوارب دايره بين الأغربه ، ومعها ساير الماكل والفواكه للبيع . وكان فيه أسير مسلم كان يخدم قبطان من غير حدي[3] ، تعرًّا وسبح ، وطلع للكروم ، وجاب عنقودين في فمه . وعادوا توجهوا الأغربة إلى أسكلة نابل ، صار ضرب مدافع من القلاع والمراكب ونزل الدوكا في دار عظيمة ، المعتاد أن ينزلوا بها الباشاوات ، وعيَّن للأمير فخر الدين بلاص قرب الأسكله بهجة متسعة[4] ، وقال له : اسكن بهذا البلاص ولا تعطوا

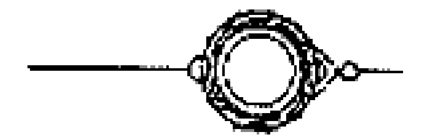
(1) أي أسند إليه حكمها . وقد ذكر الخوري بولس قرأ لي أن اسم الدوق حاكم بليومو هو : دسونا وليس أمونا .

(2) بمعنى أقلعوا أي انطلقوا

(3) أي غير مقيد .

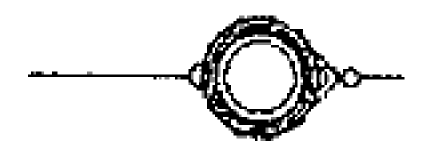
(4) أي واسعة تبعث البهجة في النفس .

كري ، وذكر أن معتاد كراه كل سنة ثلاثماية غرش . وغلات[1] الكري من كثرة الناس .



عن مدينة نابل

والعمار حتى بيوت نابل مغطايه بالحجر من خمس طوابق إلى سبعة . وقالوا : إنّ فيها ستماية ألف نفس ، ستّ كرّات . وكلّ حاكم يعرف قدر ايش يموت في بلاده ، وقدر ايش يخلق[2] في كل سنة . وضبط ذلك هيّن عليهم ؛ لأن الذي يموت ياخذوه إلى الكنيسة ، والذي يخلق ياخذوه يعمّدوه في الكنيسة أيضًا ، وما يمكن يعدّي[3] على مولودهم سبع أيام إذا لم يعمّدوه . وكل كنيسة تعمل دفتر بذلك ، ويسلّموا كل سنة دفاتر الكنيسة ، ويطالعوا الذي مات ، والذي خلق ؛ يعرفوا اكم في المدينة روح ، وايش زادت ونقصت .



مراقبة القادمين إلى المدينة

وحتى المتوكلين في الخانات ، والذي ضامنينهم كل ليلة بليلتها يكتبوا جميع أسامي الغُرْبيَّه الذي نايمين في الخانات ، ويعرضوهم على حاكم المدينة . ولهم موضع يبقُوا الأوراق فيهم من السنة إلى السنة ، وسبب ذلك ليلاً يتداخل ناس غربا بزياده في المدينة من قبل أحد من السلاطين والناس مشغوله في بيعها وشراها وأشغالها لا يديروا بالهم إليهم ؛ فيصير على المدينة خللاً ، حتى يعلموا قدر ايش الغربا في المدينة ، وثانيًا ليلاً يكون مع أحد طمع ويخفوه في الخان إذا تسايل عنه ،

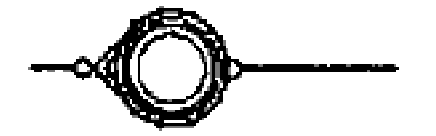
---

(1) غلات الكري يعني غلاء الأجرة .

(2) أي يعرف عدد المواليد وعدد الوفيات .

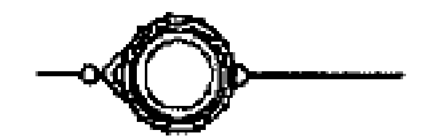
(3) يعدي بمعنى يمر .

قوام من الأوراق التاريخ ينبشوه[1] ، ويلزم الخاناتي[2] في سكناه إياه .



من معالم المدينة

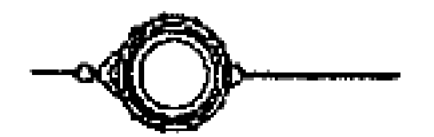
ومدينة نابل لها صور وأبواب حديد ، وقلعة كبيرة على البحر ، وقلعة صغيرة أيضًا على البحر ، وقلعة ثالثة فوق منها على صخر صم عالي تسمى اسطاطوا[3] بناها سلطان إسبانيا يوم حكم المدينة لأنها سابقًا كانت تحت يد سلطان فرنسا .



باشات نابل ونظام الولاية

وبلاد نابل متسعة ، ولها سبع باشات ، وعزلهم وتوليتهم في يد باشة نابل ، وعادت[4] سلاطين النصارى إذا أعطوا باشوية إلى أحد يولوا باشتهم ثلاث سنين إذا كان راضي منه السلطان والرعية يجيبوا له تقرير ثاني ثلاث سنين أخر ، وإذا صار شي مخالف عن قاعدتهم على الأبد ما يعودوا يعطوه منصب ، ويلزم بيته .

ومدينة نابل عظيمة في الكبر وكثرة الناس . وذكروا أن مدينة سلطان فرنسا باريس قدرها مرتين . وذكروا أن في نابل سبعين دوكا . ونابل داخل إليها مياه ، ولها بساتين بكثرة .



من أثرياء نابل

وفي نابل دولتلي[5] يقال له : مكايلوش ، وذكروا أن في أول عمره كان

---

(1) يخرجونه . وقوام بمعنى فوراً

(2) الخاناتي : صاحب الخان ويلزم بمعنى : يسأل عن إيوانه .

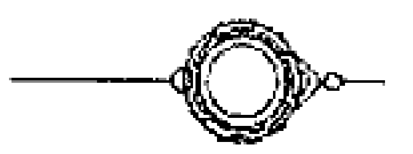
(3) ستاتو كلمة إيطالية statua بمعنى صنم أو تمثال كان قد نصب هناك (المعلوف)

(4) عادة أبقيناها كما وردت في الأصل .

(5) دولتلي : مصطلح تركي بمعنى صاحب الدولة أو الحاكم . والمقصود هنا : ثري .

صلداوي[1] علوفته ثلاث أربع غروش في الشهر ، وعاد ترقى حتى قالوا : إن معه سبع مليونات ، والمليون عشر كرّات ، يكون معه سبعين كرّه ماية ألف غرش ، وهو يعطي لجميع أفران نابل طحين ، كل يوم اثني عشر ألف تمنه ، تجي ألف غراره عكاويه[2] . وله مراكب في البحر يجلبوا القمح ، ومراكب وشخاتير لأجل الطحن ، وله وكالة لأجل تغربل الحنطة ، وطلوع الحنطة إليها ، وهي وكالة كبيرة ، ومحطوط على باب الوكالة من كل ناحية صورة راس بني آدم الذي كانوا واقفين في هذا المنصب[3] ؛ يعني الذي يدخل في هذا المنصب ويقصر عن خدمته يصير له مثلهم .

ووقع بينه وبين باشا نابل منافسه ، فأخد على خاطره ، وراح لعند باشا مسينا ، وضلوا جماعته دايرين هذا الدولاب[4] مع عظمه . وذكروا أن الدوكا له ثلاث قرايا ثمار مدخولهم كل سنة ثلاثين ألف غرش .



احتفال بسلطان جديد

وصار في نابل عيد في تولية السلطان الجديد موضع أبوه ؛ فصار زينة ثلاث أيام ، وأملوا بتاتي حطب[5] ، وحطوهم بين شراريف[6] القلاع بين كل شرافتين بتيّة ، وبعد العشا شعلوا البتاتي ، وبين كل بتاتيتين[7] مدفع ، وكلما شعلوا بتيّه يضربوا المدفع الذي بجنبها ، حتى انتهوا إلى موضع البدء . وعلى هذا المنوال من قلعة

---

(1) صلداوي : جندي (إيطالية) (المعلوف)

(2) التمته : أحسبها الثمنية وهي ثمن المد ، والغرارة كمية تتفاوت من بلد لآخر كما الرطل ، وهي في الشام تساوي ثمانين مُداً .

(3) أي الذين تسلموا هذا المنصب .

(4) المقصود بالدولاب هنا : مصالح هذا الرجل الثري .

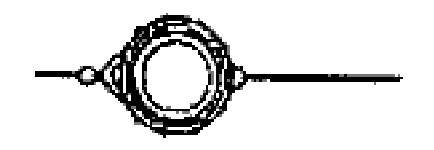
(5) البتاتي جمع بتية : إناء يملأ بالحطب ثم تضرم فيه النار .

(6) الشراريف : الشرف جمع شرفة .

(7) كذا وردت والصواب بتيتين كما أثبتها المعلوف .

ستالموا ، ومن المراكب والأغربه . ومعيّن لنابل أربعة وعشرين غراب ، ومصرف الأغربه عادتها على النسوان التي تحط[1] القسط . وذكروا أنهم اثنى عشر ألف امرأة .

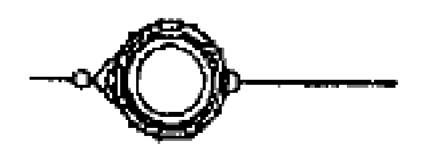
وضرب في هذه الثلاث أيام الزينة ألفين وستماية مدفع .



دخان للمعالجة

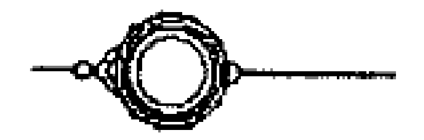
وبرًا نابل موضع يطلع منه دخان من صخر مثقوب ، وعاملين قُبّة وبيوت وفرش ولحف . إذا كان إنسان ما هو طيّب يروح إلى فوق هذا الدخان لأجل تجليب العرق ، ويشلح ثيابه ، ويلبس غيرهم ، وينام على الفرش ، ويتغطّا تلك الليله لأجل النفع بالتعريق ، ويدير باله إلى روحه من الهوا والبرد .

وهذا الدخان طلوعه من غير كبريت .



أسرى عرب

وكان الدوكا أرسل غلايين للقرص ، وهم معدّايين على جبل الأخضر جابوا ثمان يُسَرا عرب ، فعندما جابوهم إلى نابل إجا[2] من أحكا للدوكا أن هذه الثمان عرب ما مسكوهم إلا في الأمان ، جاؤا يبيعوا على الغلايين لبن وغنم ؛ فجاب الدوكا القبطان وسايله عن ذلك ، وقال له : هذه الثمان رجال العرب الذي جبتموهم بالأمان روح استكري لهم مركب ، وارسلهم إلى الموضع الذي جبتهم منه ، وإلا اشنقك بتيابك ، فامتثل كلامه ، وأرسلهم إلى بلادهم .



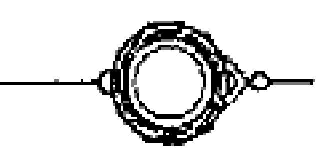
مساومة فاشلة

وفي بعض أيام جاؤا أكابر لعند الأمير فخر الدين أرسلهم الدوكا الصونا في

(1) في تاريخ المعلوف تحت القسط . والمقصود : العواهر .

(2) بمعنى جاء .

التنهيا[1] ، وكلموه ، وقالوا : إن رحنا إلى بلادكم قدر ايش يجوا ناس معنا من أهلكم وبلادكم؟ فقال لهم الأمير : هذا أمر دين ، ما أقدر أكفل أحد لا أخي ولا ولدي ، ولا أهل بلادي ، بل أنا عندكم وقدّامكم . فقالوا : إذا ما جاؤا معنا ما يبيعونا ذخيره؟ فقال لهم : أنتم تعرفوا قوة دين الإسلام ، وقوة آل عثمان ، بل الذي مراده يقهر القوتين ما يتكل على مشترى ذخيره من الناس . فأحكوا في لسان بعضهم بعضًا بلسانهم ، وهزوا روسهم من هذا الجواب ، فقالوا له : كم كنت تجمع عسكري في بلادك؟ فقال لهم : يوم كان المنصب علينا[2] ، والحكم والحكومة في أيدينا جمعنا أزيد من عشرة آلاف رجل من غير الذي يتأخروا في البلاد ، وأما اليوم ما لي حكم إلا على نفسي . فتعجّبوا من جوابه لذلك ، وتركوا الكلام معه . ومن ذلك اليوم وهذه الجوابات ما عادوا داروا بالهم منه مثل عادتهم ، ولا عادوا أعطوا العلوفة المعتاده[3] ، وبقا الأمير يبيع صيغه وحوايج[4] ويخرج على نفسه وعياله الذي معه ، وبقي على هذه الحال مدّة في نابل .



دعوة من سلطان فرنسا، واعتذار الأمير عن قبولها

وفي ذلك الوقت جاء إلى عنده القنصل الذي يسمى كردانا الذي جاء معه من بلاده ، وعلى يده مكاتيب من سلطان فرنسا يطلب منه توجُّه الأمير لعنده ، وأرسل يقول له : سمعنا أن مرادكم ترجعوا لبلادكم ؛ مرادنا نتعارف بكم ، ونرسل معكم مكاتيب شفاعه فيكم إلى سلطانكم ، لأننا نحن وإياه صلح وأصدقا من قديم مثل الإخوان . وما أراد الأمير يتوجه إلى عندهم ، بل أرسل له مكتوب ملطّف يتعذّر له

---

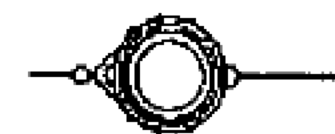
(1) الصونا نائب ملك اسبانيا في جزيرة صقلية وحاكم بليرمو ، والتنها كلمة تركية بمعنى السر أي أرسل إليه عدداً من رجاله سراً .

(2) أي يوم كان حاكماً .

(3) أي أهملوه وقطعوا عنه المرتب .

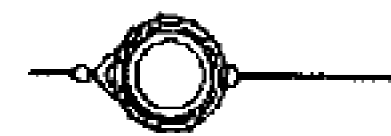
(4) الصيغة تعني الحلي التي تتزين بها النساء من ذهب وفضة وسواهما .

بسبب قلّة توجُّهه لعندهم ؛ لأن وهو عند الغراندوكا في اليفورنا أرسل الحاج كيوان مكاتيب حتى يتوجه إلى عند سلطان فرنسا ، فما أعطاه رضا بذلك ؛ فبهذا الوجه ما عاد حضرة الأمير توجّه لعنده .



مساءلة الأمير عن الصلاة والجامع والمئذنة

وبعد ذلك كان عند الأمير يسير[1] معتوق للشيخ ناصر المذكور ، وكان رجل متصوّف يصلّي في الأمير جماعة في رمضان ، وأحمد صبايا من بيروت بقا يؤذّن ، فحين سمعوا راحوا أحكوا للدوكا ، وأكابر دينهم . وكذلك الأمير كان عنده في الدار سلم بلولب ، وكمّل السلّم وعلاه حتى بقا يشرف على البحر والأسكله ، وعمل قرب راس السلم بيت حطّ فيه حمام ، فقال الأسير للشيخ : سمعنا انه جايه لعندكم ناس من أكابر دينهم يسايلوكم عن ذلك ، فتاني يوم جاؤا رهبان وبعض أكابر وسايلوهم عن ذلك ، وقال : أنتم تصلّوا جماعه ، وعملتم ماذنه؟ فكان جواب الأمير : صحيح منصلّي ، فقالوا له : نحن ما نمنعكم عن صلاتكم . فقال لهم : جايز ، كل من يصلّي وحده . فقال الرهبان : سمعنا أنكم عملتم ماذنه ، فقال لهم : رأينا دورة سلم في الدار مدورة كمّلناها حتى نبقى نكشف على الأسكله والمراكب ؛ فقالوا : عملتم بجنبه بيت جامع . فقال : عملنا بيت لأجل الحمام . فقالوا : مرادنا ننظره . فقال لهم : جايز ، وطلع قُدّامهم ، أرواهم الموضع[2] ؛ فلما نظروا بيوت الحمام موجودة مقطّعة ، وما فيه موضع محراب للصلاة نزلوا وتركوا ذلك الكلام .



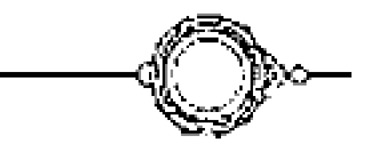
الأمير فخر الدين يرفض عرضاً لاعتناق النصرانية

وبعد ذلك كان عند الأمير ذلك اليسير ، والشيخ ناصر الدين من صفد ، فجا

(1) اليسير : الأسير

(2) أي جعلهم يرونه .

اليسير إلى الشيخ وقال له : فيه رجل مراده يجتمع فيك في جنينة الدوكا ، فقال له : جايز ، فراح قدامه الأسير ، وراح معه ، فلما وصل إلى الجنينه قعد يتفرج إلاّ والدوكا باشة نابل طالع لعنده ، واتْأخذ منه[1] الشيخ ناصر ؛ فطيّب خاطره ، وقال له : مرادنا نرسل معك كلام إلى الأمير ، فدخل معه إلى مشلح الحمّام[2] وقال له : انت من أين؟ وكم لك سنة في خدمة الأمير؟ فقال له : أنا من صيدا ، ولي في خدمة الأمير من صغري ، فشال له الدوكا مكتوب ، وقال له : هذا جاء من سلطان إسبانيا مضمونه : إنكان الأمير فخر الدين يدخل في ديننا نعطيه حكم على قدر ما كان عاطيه سلطان المسلمين في بلاده وأزيد ، وانكان ما يرضا بذلك إن أراد يقعد ، وإن أراد يروح إلى بلاده . فقال له : نعرض الكلام على الأمير ، ونجيب لك الجواب . فجاء الشيخ ناصر الدين أحكا للأمير ذلك ؛ فقال له الأمير : روح رُدّ الجواب على الدوكا ، وتشكرٌ من سلطان إسبانيا ومنه ، وقول له : الأمير قال : ما جينا إلى هذه البلاد لا كرامة دين ، ولا كرامة حكم ، بل لمّا جاء علينا عسكر ثقيل[3] جينا احتمينا عندكم ، واحميتوا راسه ، وراعيتوه ، ولكم بذلك الفضل والجميل والمنّه . إن أردتم هو قاعد عندكم بتوابعه على حاله ، وإن أرسلتوه إلى بلاده فهو المراد لأن له أهل وتوابع وبلاد .



والدة فخر الدين تطلب عودته

ومن حكمة الله تعالى لأجل التقدير والتسهيل جاء مركب في ذلك الوقت من صيدا ، وجاب مكاتيب للأمير ؛ فأرسل الدوكا ورا الأمير ، وقال له : جا من بلادكم مركب؟ قال : نعم . قال : جاكم أخبار وكلام؟ فقال : جانا مكتوب من والدتنا تقول : إننا بقينا محبوسين في قلعة الشام ، ولما منّ الله تعالى علينا ، والحكّام أطلقونا إلى بلادنا ، وأنا بقيت امرأه كبيره ، مرادي تقوم تجي حتى انظرك قبل الموت ، وأقسمت

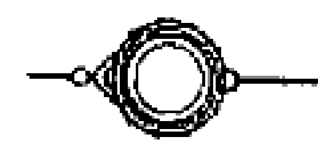
---

(1) أي دهش .

(2) أي محل خلع الثياب قبل الاستحمام .

(3) عسكر ثقيل : جيش كثير العدد ، مدجج بالسلاح .

عليّ بتربيتها إلى أن أتوجه لعندها . فقال له الدوكا : وانت أيش تقول؟ فقال : أنتم أخبر بعزّة الولد[1] عند الوالده ، وبعد قسمها عليّ بتوجهي إلى عندها ، ما عدت أقدر أتأخر من خاطري عن التوجه إلى عندها .وإن كلّفتموني إلى قلّة التوجُّه ما بقي في رقبتي خطية[2] من كلامها . فقال : توآمن[3] تروح في هذا المركب ، ولو ما كان فيه عدّة كثيرة[4]؟ فقال : المركب راح واجا إلى بلادنا طريقين ثلاثة[5] بالسلامه والأمان ، وهالخطره[6] قد يكون الله مسهّل على حضّك وصفاوة خاطرك علينا نرجع بالأمان . فقال له : ما دام لك خاطر في الرواح نعطيك إجازه ؛ فتشكّر الأمير منه ، وفرح بذلك ، وقال له : عن إجازتك بكره ننزّل العيال والحوايج ، فقال : جايز . وراح الأمير وقت المغرب اعلم عياله وتوابعه ؛ فما رقدوا تلك الليلة من شدة الفرح والانشراح .



عراقيل في الميناء، وتردد في السماح للأمير بالسفر

وكان توفّى إلى الأمير بنت من مدّة ، فتوبتها بتابوت[7] ، وحطّها في أوضه ، وسدّ عليها بالحجر والكلس وديعة حتى يعاود لبلاده ياخذها معه ، ففكّ الباب ، ونزّل التابوت وأرسله إلى الأسكلة مع بعض حوايج حتى ينزلوهم للمركب ، فمنعوه الواقفين على الأسكله ، وجاؤا علموا الأمير وهو متفكّر . في ذلك الوقت عدّا الدوكا قرب الباب ، فتكلّم معه أن الذي في الأسكله منعوهم لأن ما معهم إجازه من

(1) أي مكانة الولد عند الوالدة ، أو محبته .

(2) خطية بمعنى ذنب .

(3) توآمن : بمعنى تطمئن .

(4) العدة بمعنى السلاح .

(5) طريقين ثلاثة بمعنى مرتين أو ثلاث مرات .

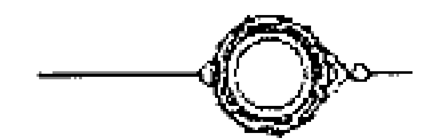
(6) أي هذه المرة أو السفرة .

(7) أي وضعها في تابوت .

الدوكا في نزول ذلك ، وطلب ناس أن يروحوا للذي في الأسكله ، وعيّن معهم الأمير من جماعته ناس ؛ فما عادوا تعارضوا إلى تنزيل الاعيال والأسباب ، وما بقوا متعوّقين إلا على ورقة الإجازه ؛ لأن العادة عندهم أن ما يقلع مركب إلا بورقة الإجازه . وبقا الأمير يطلب الورقه من الدوكا وهو يطاول[1] ؛ فكأنّ أحدًا ندّمه ، قال له : ما هو مليح أن يتوجه ابن معن إلى بلاده لأنه اتطّلع على بلاد النصارى وأحوالهم ؛ فبقي الدوكا يطاول في ورقة الإجازه ثمان أيام ، والاعيال والأولاد والأسباب في المركب .

وكان عند الأمير ترجمان من قبل الدوكا يقال له : قارلو ، فقال له : مرادنا ندخل للمركب نطيّب خاطر الاعيال ونعاود ، فقال له : جايز . وكان الأمير شاري صندوق بارود ، شاله من جوف المركب ، وحطه تحت الاعيال ، وقال : إن ألزمنا الدوكا في النزول من المركب نعرف أن ما بقا من أيديهم خلاص ، ومعنا اعيال واولاد ، وانه إذا آيس من الدوكا يعطي البارود النار ويحرق له وإلى الاعيال والأولاد .

ونزل من المركب على هذه النية ، فراح لعند الدوكا حتى يعطيه فصل الكلام الذي لا بدّ عنه ، وقال إلى الدوكا : نحن ما نزّلنا إلى المركب الاعيال والأسباب إلا بإجازتك ورضاك ، ولهم ثمان أيام في هذا الشوب[2] ، وعليهم صيام رمضان . مرادنا منك ورقة الإجازة في السفر ، فقالت له امرأته : ما دامك اعطيته قول واقرار في التوجّه إلى بلاده أعطيه ورقة الإجازه ، وخلّيهم يتوجّهوا الان عياله واولاده وصاروا في المركب . فقال : جايز حتى يجي إلى عندي عشيّة حتى اكتب له ورقة الإجازه .



استجواب

فلما عاود لعنده ثاني ليله حطّ له كرسي ، وقعّده قباله[3] ، وقال له : إلى أين

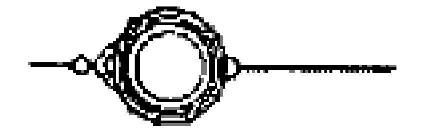
(1) يطاول بمعنى يماطل .

(2) شدة الحر .

(3) أجلسه أمامه .

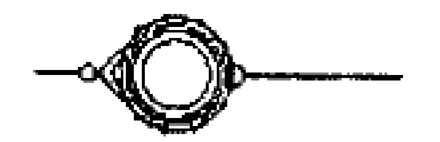
تروح؟ فقال : إلى صيدا ، فقال له : من حاكم صيدا؟ فقال له : ولدي ، فقال : ايش عمره؟ فقال : عشرين سنة ، فقال : ما تفزع من ولدك وأهلك وأهل بلادك؟ فقال : أنا ما فارقتهم عن بغض ولا عن عداوه . فقال : إذا ما فزعت منهم ما تفزع من السلطان؟ فقال : أنا أيش أريد من السلطان؟ أنا راضي باللقمة وشربة الماء ، وأنظر والدتي وأهلي . وإن ما رضوا منّي بذلك وإلا الجبال واسعة ، وإن كان ما تساعنا الجبال والا الدنيا واسعه ، ونكون نفدنا كلام والدتنا .

فقال له الدوكا : تروح إلى اسلامبول؟ فقال له : لو كنت أروح إلى إسلامبول ما جيت إلى عندكم! كأنهم ظنوا أن الأمير يروح إلى إسلامبول ، ويحكي عن بلادهم وأحوالهم! فلما قال لهم هذا الجواب طاب خاطرهم ؛ فقال : غدًا ارسل لنا قارلو الترجمان حتى نكتب لك ورقة الإجازة .



الدوكا يسمح للأمير بالمغادرة

في ثاني يوم أرسل الترجمان المذكور ، وكتب الدوكا للأمير ورقة الإجازة ، وجابها الترجمان المذكور إلى الأمير ؛ فشال الأمير الكيس من جيبه أعطاه إياه بما فيه بشارته ، وقال له : روح ودّي الورقة إلى اعيالنا الذي في المركب حتى يطيب خاطرهم ، وطلع للمركب وأعطاهم الورقة ؛ فشالوا صوار[1] ذهب من يدهم ، وأعطوه إياه بشارة ، وتوجّه الأمير لعند الدوكا يودّعه ، ويستكثر خيره .



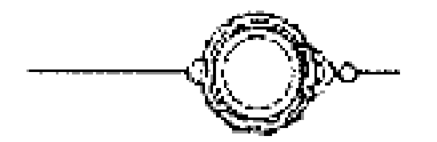
مغادرة نابل إلى مسينا

ونزلوا للمركب في أواسط شهر رمضان سنة سبع وعشرين بعد الألف ، وتوجّهوا من أسكلة نابل ، ولما وصلوا إلى أسكلة مسينا طلع من أسكلتها خمس أغربة ، فظنّ الأمير وجماعته أن الأغربه جايين إليهم حتى ياخذوهم لعند سلطان إسبانيا ؛ فصار

---

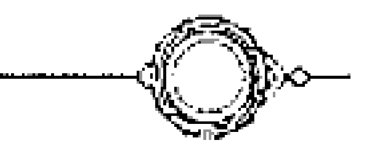
(1) هو السوار بالسين .

عندهم حسابات وهمّ عظيم من ذلك ، فتاري[1] الأغربه بابا روميه ، ورايحين إلى بلادهم ، فلما فاتوهم الأغربة طاب خاطرهم ، وعدّوا بوغاز مسّينا ، وطاب لهم الريح وساروا تلك الليلة .



مخاوف وأخطار

وفي صبيحة ثاني يوم صادفهم غليون قرصان ، وقصدهم وبقا الريح طيّب للجميع لا هو يقدر يلحقهم ولا هم يسبقوه . فلما غابت الشمس افترقوا ، وبقوا مسافرين حتى اشرفوا على عكا ، فاختلف الريح عليهم ، وما مكّنهم الريح من الدخول إليها . وقصدوا مينه حيفا ، كذلك ما قدروا يدخلوا إليها . وفي ذلك الوقت اشتد عليهم الريح حتى كبر الموج ، ومن كبر البحر بقا يطلع للمركب ، ومن كثرة الريح انكسرت قريّة القلاع[2] الكبير ؛ وأيسوا السلامه ، فتكلموا جماعة الأمير والبحرية مع الريّس انه ينشب المركب للبر ؛ فقال لهم الريّس : صحيح أنا ريّس المركب وصاحبه ، ولكن أنا في كروة الأمير ، وهو كبيرنا ، وما يمكن نعمل شي بغير علمه .



العناية الربانية تنقذ الأمير ومرافقيه من أخطار البحر

فراح الريّس شاور الأمير على ذلك ؛ فقال للريّس : دير المركب إلى ناحية المواسطة ، إن صار سلامه فهو أحسن ، وإن صار غيره فهو أستر ، فامتثل كلامه وخاطره ، ودار المركب صوب المواسطة ، وبقوا طول الليل ينجّروا[3] في القراية ويسمّروها لوقت الصبح ، والأمير والريّس والبحّار واقفين حتى تمّموا ذلك ، وما أصبح لهم إلا وهم قرب غزه ، وقاموا القلاع وأيقنوا أن المركب إذا سلم يصل إلى بر مصر .

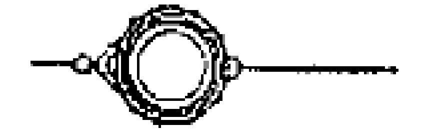
---

(1) أي فإذا بالأغربه لبابا رومية .

(2) العود الذي يجعل في عرض الشراع من الأعلى .

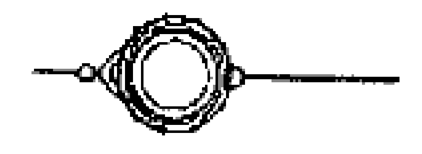
(3) نجر بمعنى نحت وسوّى .

فعاد صار رحمة ربانية، وسكن الريح، وهجع البحر، ودار المركب صوب أسكلة عكا وطلع إلى البر كما سيأتي ذكره في موضعه إنشا الله تعالى.



جبل الدخان والنار (فيزوف)

وهم مارّين بين نابل ومسّينا رأوا جبل الدخان النار[1]، وإذا قرب منه مراكب المسافرين يسمعوا فيه أصوات هايله، واحجار ترتفع بالهوى من نار، وترتمي في البحر، وحجر الخفان من ذلك، ويلموهم أهل المراكب المارين بذلك البحر، ومنهم يصنعوا حجر الرجل في الحماميم[2] بكل موضع. وطلوع النار والدخان من الكبريت.



نفق في نابل

وكذلك رأوا في نابل جبل منقور في العدّة[3] من المدينة إلى موضع يقال له: البصول، والبصول[4] بلد وبساتين ومنزهات. والدرب الذي نقروها لأجل العربات حتى تروح على النقور، ولا تطلع في الجبل. وطول هذا النقب ميل من الباب للباب، وعرضه ما يعدّي العربتين واحده رايحه، وواحده جايه؛ حتى لا يتعوّق في بعضهم البعض، لأن إذا تلاقوا العربتين، يقول الواحد على يمينك، والآخر يقول على شمالك.

وفي النقب قفّاعات[5] في سقفه لأجل الضو، ولكن من علو الجبل ما يصل

---

(1) في تاريخ المعلوف: رأوا جبل له دخان ونار، ولعل الصواب: جبل الدخان والنار. وهو بركان فيزوف.

(2) الحجر الذي تحك به الرجل في الحمامات.

(3) العدة: الآلات التي ينحت بها الصخر.

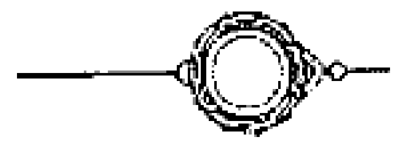
(4) البصول: مدينة قديمة شمال نابلي تبعد عشرة كيلو مترات وهي مدينة خربة.

(5) القفاعات واحدتها قفاعة: الكوة في السقف ينفذ منها الضوء.

الضو إلى ضرب[1] النقب إلا ضعيف . وفي بيت الوسط مصورين السيدة مريم ، وراميين عليها قنديل مضوّي دايم . إذا وصلوا لعندها المارين من هناك عرفوا أنهم وصلوا لنصف النقب .

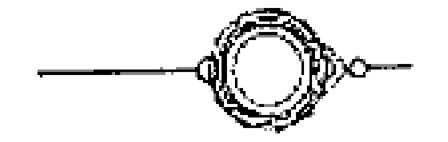
وسايلنا عن هذا النقب فقالوا من قديم من قبل السيد المسيح ، وما أحدًا يعرف في آنا جيل[2] انعمل .

ودكروا أن في البصول كان أسكله بقا يرسي بها الغلايين ، وفي بعض الزمان جا تراب ورمل من البحر حتى طم موضع المراكب ، وصار موضع الأسكله أرضًا .



الكبريت قرب نابل وطريقة استخلاصه

وكذلك نابل في الجبل بنصف مرحله ثلاث جبال ، وبين الثلاث جبال سهله كبيره ، وياخد من بين هذه الثلاث جبال تراب إلى عمل الكبريت ، ومعمل الكبريت له خوابي عدّة مبزولة يحطّوا التراب بها ، والخوابي مركّبه على موقد ، ويوقدوا تحتهم ؛ فيذوب الكبريت وينزل من البزولات إلى الخوابي ويصير أقراصًا ، ثم يُصفّوا الكبريت مرة أخرى ، ويعملوا من هذا الكبريت بعض شربات وطاسات لأجل حتى يشربوا منها لأن الشرب من أوعية الكبريت نافع لبعض الأوجاع . والتراب الذي يشيلوه يبان فيه شقف الكبريت .



أرض النار والغرائب

ومن صخونة[3] الأرض تتنفس النار منها ، وتطلع النار مثل نار الأتون لهبه حمره على قدر قامتين ثلاثه . من تحت حسّ دويّ ، ومن راس اللهبه دخان .

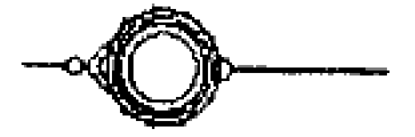
(1) في المعلوف : درب .

(2) أي في أي جيل .

(3) سخونة .

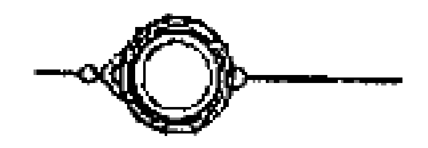
ومن خاصيّة هذه النار ، إذا وضعت البلان[1] اليابس فوقها لا يحترق ، وإذا وضع الإنسان فوق منها معول حديد يذوّبه ، ويبقى ينقّط ، وإن بقي الحديد فوقها يذوب جميعه .

وجميع ما يتحصّل من أراضي هذه الكبريت وقف للكنيسة . وفوق نابل كذلك عن نصف مرحله بركه ، وفوق البركه مغاره صغيره مقدار أربع خمس أدرع غمقها ، وأما علوّها ووسعها ، مقدار دراعين . وفي وسط المغاره حجر ، إذا دخّلوا جوّات الحجر الكلب في المغاره يلهث ويفتح فمه ، ويطالع لسانه ، ويغشى عليه ؛ وإن سحبه أحد في الحين ورماه في البركه يفيق ويقوم على حيله[2] وإن تركه في المغاره إن كان كلبًا أو غيره يهلك ؛ وذالك من حماوة الكبريت! ولها المغارة باب وخدامين ، وعندهم كلاب لأجل ذلك إذا جا لعندهم أحد يعملوا قدّامه حتى يفرجوه لأجل معلومهم .



زراعة الكتان وصناعته في نابل

والبركة الماء الذي تحت المغارة من ماء المطر ، ويزرعوا بها الكتان ، والكتان موجود في جميع بلاد النصارى ، ويعملوا منه قماش القمصان وغيره ، وخيطان وقماش الياقات ، والقماش الذي للياقات . والذراع ثمنه من القرش إلى القرشين . وجميع قمصانهم وملاياتهم ، وجميع ما يتغسّل في الرماد يخيطوه بخيطان كتّان ؛ لان إذا كان مخيّط بحرير يهتري[3] .



اسبانيا والهند الجديدة (أمريكا)

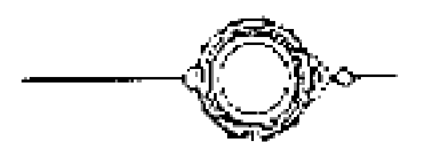
وكذلك الهند الجديدة الذي فتحها سلطان إسبانيا عامل لها أربعة وعشرون غليون ، اثني عشر غليون تروح ، واثني عشر غليون تجي يجيبوا فيها فضة الريال ، والبهار ، والاثني عشر غليون من يوم يطلعوا من الهند يطلع اثني عشر غليون من

(1) نبات شائك تصنع منه المكانس . كما يستخدم وقوداً .

(2) أي ينهض واقفاً .

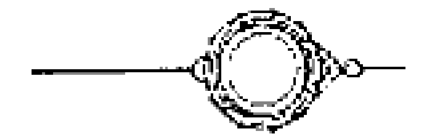
(3) أي يتلف .

إسبانيا ، وسفرهم ستة شهور حتى يصلوا . وذكروا أن في كل غليون ماية وعشرون مدفعًا ، وألف نفس ، وطاحون ، وبير . وفي بعض السنين لاقوهم غلايين الفلمنك ، وكاونوهم[1] وكسبوا منهم بعض غلايين .



مقارنات

وذكروا أن مدينة باريس فيها خلق قد مدينة نابل طريقين[2] . وذكروا أن الأمير سمع من أكابر بلاد النصارى أن جميع الأرض الثلثين في يد المسلمين ، والثلث في يد النصارى ، وفيه ناس قدر الثلثين الذي في يد المسلمين ؛ لأن ما فيها لا بريّه ولا خراب .



الخدمة العسكرية في بلاد النصارى

وذكروا أن جميع بلاد النصارى كل حاكم بلاد يعلّم أهل بلاده نقل العدّة[3] وضرب البندق والسلاح ، ويكتب أهل بلاده عسكريّه ، منهم ناس إذا تعلّموا نقل السلاح ، وبقوا سنتين ثلاثه يعطيهم أجارتهم ، ويعلّموا غيرهم[4] . وكذلك إذا كان حاكم مراده يعمل قتال وسفر مع أحد يكتب عسكر من بلاده . والعادة عندهم أنهم يعطوا العسكري . . .

(1) الفلمنك : الهولنديون . وكاونوهم : حاربوهم .

(2) أي ضعفي عدد سكان نابلي .

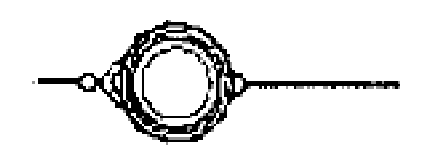
(3) العدة هنا بمعنى السلاح .

(4) في تاريخ المعلوف : ويعلموا غيرهم وهلم جرا ، وبها تنتهي أخبار الرحلة .

وفي ملحق تاريخ الخالدي تنتهي أخبار الرحلة كما أوردناها لأن المخطوطة التي اعتمدها الدكتور رستم وزميله انتهت بذلك وتلاها صفحة ونصف بياض .

وعليه فقد آثرنا أن نختم أخبار الرحلة بالفقرة التالية من تاريخ الخالدي والمتعلقة بوصول الأمير إلى أسكلة عكا بعد غياب خمس سنوات وشهرين في إيطاليا .

وصول الأمير فخر الدين إلى عكا[1]



«وأما الأمير فخر الدين فإنه لما قارب أسكلة عكا أرسل قدّامه أناسًا متعيّنين ليكشفوا له أخبار البلاد ، ويتعرّفوا الحاكم فيها من هو ، فعاودوا إليه وأخبروه أن ولدك الأمير علي هو الحاكم ، وكتخداه مصطفى كتخدا في قرية أبي سنان يجمع مال البلاد ؛ فأرسل الأمير فخر الدين إليه ، فجاء وهو لا يتمالك عقله ، فلما تحقّق الأمير فخر الدين ذلك نزل من الغليون الذي جاء فيه ، وطلع إلى البرّ ، وقبّلت الناس الحاضرون أياديه . وفي ثاني يوم اطلع الحريم والجماعة الذين كانوا معه في تلك البلاد ، وكانت مدّة غيبته فيها خمس سنين وشهرين» .

(2) الفقرة الأخيرة من تاريخ الخالدي صفحة 69.



ملحق (1)

رحلة الأمير فخر الدين المعني الثاني
كما وردت في تاريخ الأمير حيدر الشهابي

وحينما تحقق الأمير فخر الدين أن الحافظ أحمد باشا لا يزال طالبًا إياه جورًا وظلمًا وتعديًا، طلب أخاه الأمير يونس، والأمير منذرًا، والأمير ناصر الدين التنوخيِّين، وجميع مشايخ البلاد، والخوازنة إلى نهر الدامور، وطلب منهم الإسعاف، وأن يحاربوا معه عسكر الحافظ أحمد باشا، ونظر من الجميع قلة اهتمام؛ فكبر عليه الوهم فتركهم ورجع إلى صيدا، وعزم على السفر في البحر إلى بلاد الإفرنج. وكان عند الحاج كيوان رجل يهودي اسمه اسحق، فأرسله إلى قنصل صيداء كي يستأجر له تلك المراكب، فتدبَّر له مركبان[1] أجرة الواحد منهما خمسماية غرش، وأرسل الحاج كيوان أحضر عياله من شقيف تيحا، وفي الحال أنزلهم في قارب إلى المركب، وأنزل الأمير عياله إلى المركب الثاني، وهم بنت الشيخ مظفر، وأولادها، وأخوها الحاج علي. ثم أمر الأمير فخر الدين أخاه يونس أن يقيم في دير القمر لحين عودته. ودفع إلى السكمان علوفة كل واحد ليرتين، وأوصاهم في طاعة أخيه، ووكَّل بهم محمدًا اليازجي. وأرسل زوجته الثانية ابنة الأمير علي ابن سيفا إلى شقيف تيحا، وأقام عندها مملوكه مصلي آغا بخمسين رجلاً. ونزل الأمير إلى المراكب التي استأجرها، وصحبته من خدمه ستة عشر رجلاً. وقبل أن يسافر من صيدا حضر الشيخ يوسف السليماني من غزير فسلمه الأمير ثلثمئة ذهب أمانة لكي يوصلها إلى البكباشية الذين في حارة غزير، وسافر الأمير فخر الدين في البحر في غرة شعبان[2]. وبعد توجه الأمير طمع الشيخ يوسف السليماني[3] بالدراهم التي

---

(1) في رواية الخالدي: أن الأمير استأجر ثلاثة مراكب: الأول فلامنكي (هولندي) والآخران فرنساويان.

(2) من سنة 1022 هـ = 1613 م.

(3) في رواية الخالدي: الشيخ يوسف المسلماني.

استلمها ولم يوصلها إلى البلكباشية ؛ فأخلوا سراية غزير ، وحضروا إلى دير القمر .

وأما الأمير فخر الدين فبعد نزوله في البحر كما ذكرنا سابقًا سافر متوسطًا في البحر مجتنبًا الشطوط خوفًا من القرصان ، فصادفهم مركب قرصان مالطي ، فقصدوا المركب الفلامنكي ، وسألوا الرئيس : من أين قادم؟ فأجابهم : من بلاد الشرق ، ولما تحقّقوا أنهم لا يقدرون عليه تركوه وساروا .

ولم يزل هذا المركب الفلامنكي سائرًا إلى أن وصل إلى مدينة صقلية ، واجتاز جزيرة سردينيا ، وقرصقا ، ووصل إلى مرسى ليكورنا من بلاد إيطاليا من الغرب . وكانت مدة سفرهم من صيدا إلى ليكورنا ثلاثة وخمسين يومًا . فخرج إليهم قارب عليه علم الدوك ، وفيه أناس يعرفون اللغة التركية والعربية ، وسألوهم : من أين أنتم مسافرون ، وما بضاعتكم؟ فأجابوهم : إن المركب فلامنكي ، وأخبروهم عن الأمير فخر الدين ، وأنه حاكم أكثر بلاد الشرق ، فجار عليه المسلمون وأتى ملتجئًا إليهم . ثم طلب منهم الأمير أن ينزل إلى البر ، وكانت قد فرغت ذخيرته لأنه لم يكن يظن أن المراكب الفرنساوية تفارقه ، وكانوا طلبوا من الرئيس أن يعطيهم ذخيرة فاعتذر لهم أنه مسافر ثم أعطى كل شخص سبع كعكات بقسماط وبقوا يشترون من النوتية كعكة البقسماط بعشر بارات . ورجع القارب إلى ليكورنا واعلم الحاكم بذلك فأمر أن يحضر الأمير فقط ، فأنزلوه في القارب خوفا من الطاعون وصحبته خادمه مسرور . ولما وصل إلى البر أدخلوه إلى غرفة وبخروه بأعشاب ومواد مطهرة ، وبدّلوا ثيابه .

وحضر أهالي المدينة ومشوا أمام الأمير إلى منزل الدوك ، وحضر حاكم البلد وسأل الأمير فخر الدين عن أحواله وعن سبب حضوره فأخبره ما تمّ له مع الدولة من الظلم والتعدي ، فأرسل الحاكم وأعلم الدوك بذلك ، وكان حينئذ مسافرًا في بلاد فرنسا[1] . ولما وصل له الخبر أرسل وزيره يطلب الأمير فخر الدين إليه ، وأمر الحاكم بإخراج أولاد الأمير وأتباعه والحاج كيوان إلى البر بعد ما تحقّقوا أنه لا طاعون في بلادهم . وتوجّه الأمير والحاج كيوان وبعض الخدم صحبة وزير الدوك إلى مدينة بيزا

(1) ربما وهم الأمير الشهابي فالدوق كان في عاصمة الإمارة مدينة فرنسيا (فلورنسة) وليس في بلاد فرنسا كما ورد .

وهي مدينة عظيمة وثغر مهم ، فمنها تطلع القوارب من النهر إلى فرنسا . ومن هذا النهر يوجد خليج أو ترعة مفتوحة إلى ليكورنا فتحه أبو الدوك لدخول القوارب فيه إلى مدينة بيزا ، وفي وسط هذه المدينة ثلاثة جسور عظيمة وقبة[1] عوجاء مبنية من الرخام الأبيض والأسود ومعلّق في رأسها النواقيس ، وهي مبنية باعوجاج حتى يخاف الغريب أن يمرّ من تحتها لئلا تسقط عليه ، وهي مبنية على مبدأ حفظ مركز الثقل ضمن القاعدة . ثم أن الأمير فخر الدين دخل المدينة فالتقاه عم الدوكا وأمراء فرنسا وأخذوه في عربة وأدخلوه الدار ، فالتقاه الدوكا وأرباب دولته وسلّموا عليه وطيّب خاطره وأنزله في البلاد[2] الملكي وأجلسه معه على الطعام ، فابتدأ يأكل من المآكل التي ليس فيها لحم فعرفوا أنه لا يأكل من ذبائح الافرنج . فأمر الدوكا أن يقدموا الغنم والطيور إلى تابعي الأمير ليذبحوها وأقام عندهم مكرمًا إلى العيد الكبير فصنعوا حينئذ ألاعيب متنوعة ، وسمح الدوكا للأمير بأن يرى كل الصنائع والتحف والصور الموجودة في تلك البلاد المصوّرة من سبعة أقاليم إيطاليا ، وصور المنجنيق الذي كان يستعمل قديمًا في الحصار ، وأروه الكنائس المملوءة من النقوش البديعة والصناعة ، وأروه صور الحواريين والسيد المسيح كأنها أشخاص ناطقة[3] . وأعجب ما رأى الكنيسة التي بناها أبو الدوكا ، ومحل ضرب النقود المركّب على الماء . وأروا الأمير البساتين والأشجار التي في صناعتها العجب وقالوا : إن هذا الأمير الدوكا أكبر من جميع أمراء الإفرنج . وتفسير اسمه الدوكا أي الأمير الكبير[4] ، وكان أكثر ميله إلى ملك إسبانيا . وأقام الأمير فخر الدين بكل إنعام ، ثم أن الأمير طلب من الدوكا أن يأمر بإرسال مركب إلى الشرق ليُعلم أولاده بوصوله سالمًا ، وليستفهم منهم ما توقّع معهم بعد مسيره ، فأمر الدوكا بتجهيز مركب ، وكتب الأمير فخر الدين معه مكاتيب لأهله يعلمهم بها بوصوله إلى ليكورنا بكل سلامة . ووجّه معهم في المركب

---

(1) يقصد المنارة أو البرج .

(2) البلاط وليس البلاد .

(3) ليست واردة في رواية الخالدي .

(4) الغران دوكا هو الأمير الكبير .

من تابعيه ابن العيسوق، ومحمد ابن علي كاور. وساروا جميعًا بهذا المركب وظلوا سائرين إلى أن وصلوا إلى فرضة مدينة بيروت. وفي طريقهم مرُّوا على قبرس وصرفوا مدة هناك، وكان وصل الخبر إلى بيروت عنهم مع قارب كان هناك، ولما نظر أهالي بيروت المركب قادمًا ضجّوا من الفرح، وخرج أكثر أهالي المدينة إلى قرب النهر منتظرين وصول المركب ليمسكوا كلّ من كان فيه، لأنهم تحققوا أن المركب إفرنجي من بلاد الدوكا. هذا وجميع الإفرنج الذين في المركب خافوا كثيرًا على أنفسهم ويئسوا من السلامة لأنهم كابدوا في البحر مشقات عظيمة ومخاطر جسيمة من النوء الشديد الذي أصابهم، وقالوا: إننا إذا خرجنا إلى البر فلا يمكننا الوصول إلى الشوف بيوم واحد. وكانوا في حالة خطرة من شدة النوء إذ لم يقدر المركب أن يقابل البحر من شدة الرياح، فرموا المراسي على صخر في قاع البحر فوقف المركب عن المسير، وحينئذ استبشروا بالسلامة ولم يمض أكثر من ساعة حتى هدأت الرياح وأمنوا على أنفسهم. وأما الناس الذين خرجوا من المدينة فلما رأوا أن المركب توقف عن المسير رجعوا إلى ديارهم، وبقي المركب راسيًا عند نهر بيروت ثلاثة أيام (في الغناس) حتى حقّقوا الأخبار، وعلموا أن جميع ساحل البحر صار بيد الدولة وابن سيفا، فأقلعوا إلى قرب مدينة صيدا، ونزل ابن العيسوق ومحمد كاور والقبطان وعشرة من الإفرنج، وصعدوا إلى دير القمر إلى الأمير يونس. فلما رآهم فرح فرحًا عظيمًا وأعطوه المكاتيب التي له وإلى جميع أعيان البلاد، ثم توجهوا إلى شقيف نيحا، ثم إلى بانياس، وتفرّج القبطان على جبل الشوف وأرسل الأمير يونس، والأمير علي معن، وحسين اليازجي، وحسين الطويل إلى جميع أعيان البلاد مكاتيبهم، وأحضروا الجوابات من جميعهم، وعرّفوه عن أحوال البلاد وعن يوسف باشا ابن سيفا، وولده حسين باشا وما بدا منهما في غيابه. ووصل كتاب من جملة المكاتيب لأحد الأعيان فلم يجب عليه بل أرسل للأمير يونس يقول أن أخاه مغضوب الدولة فلا نقدر أن نجيبه.

ورجع بعد ذلك ابن العيسوق ومحمد كاور وقبطان المركب في الجوابات، وتوجّه معهم الشيخ يزبك ابن العفيف من أعيان الشوف لأن الأمير كان يحبه كثيرًا وكان حكّمه على بلاد صفد وبلاد المتاولة سنة، وقد أنصفه من خصمه الشيخ جنبلاط

ووضعه في قلعة الشقيف مسجونًا .

توجّه أيضًا الشيخ خطار ابن الخازن من عجلتون من مقاطعة كسروان ، وتوجّه جملة أناس من أهالي الشوف ومن خدم الأمير نحو خمسين شخصًا ، وكان سفرهم في أول شهر ربيع الأول . وأرسل حسين اليازجي يشكو من السكمان الذين في القلع انهم أخذوا العلوفة ثلاث مرات ، وكل مرة لكل رجل خمسة غروش في الشهر .

وفي السنة 1024هـ/ 1615م كنا ذكرنا أن الأمير فخر الدين والحاج كيوان تعيّن لهم الراتب من الدوكا من كلما يلزمهم ، ولكن لما طالت إقامتهم جعل لهم كل سنة ألفي غرش فقط . فصاروا هم يشترون لوازمهم وظلّوا سنتين مقيمين في ليكورنا وكانوا ساكنين في دار عظيمة لها بساتين وأشجار من سائر الأنواع . وكان في تلك البساتين قبّة مصور عليها أثنا عشر شخصًا ، وبيدهم آلات تضرب على سائر النغمات ، ولها دواليب تدار على الماء وفيها كل شيء من آلات الطرب . وقد انشرح خاطر الأمير ونسي بلاده لحسن نظامات تلك البلاد والإكرام الزائد الذي حصل له ، وبقي في (فلورنسا) لا يأكل في الشهر مرة في بيته لكثرة الدعوات التي كانت تأتيه إلى الجنائن والمنتزهات الفاخرة ، وكان يدور يوميًا في عدة أماكن لأجل الفرجة ، فكان يرى كلّ يوم شيئًا جديدًا . ودخل إلى البنك (المصرف) ولم يكن قد رأى بنكًا في حياته ولا سمع عنه ، وكان نظام البنك في تلك الأيام انه كلما زاد شيء من المال بيد إنسان يدفعه إلى البنك ويأخذ سندًا به فيتاجر البنك بالدراهم ، ومهما ربحت فلصاحبها نصف الربح . غير أنه إذا أراد أحد استجرار ماله من البنك لا يمكنه لأن الذي يدخل للبنك لا يعود يخرج منه ، ولكن أرباحه تصل إليه وإلى نسله من بعده . ويسلف البنك الدراهم لكلّ من رغب في استلافها على شرط أن يضع رهنًا يزيد الثلث عن قيمة الدراهم المستلفة ، ويخصّص جزء من أرباح هذه الأموال للفقراء . وبالاختصار تفرّج الأمير على أشياء كثيرة يطول شرحها . ثم إنه لما كان الأمير فخر الدين في (فلورنسا) عند الدوكا حاكم الطوسقانا (يظهر أن هذه الأماكن التي هي من مملكة إيطاليا الآن كانت تحت حكم فرنسا حينئذ)[1] .

(1) هذا وهم من محقق الكتاب والمعلق عليه ، فالمناطق التي زارها الأمير فخر الدين خارج إمارة تسكانا كانت خاضعة لإسبانيا وهي اليوم تابعة لإيطاليا .

حضرت مكاتيب من حاكم مسينا الذي هو تحت حكم سلطان إسبانيا إلى الدوكا يطلب الأمير فخر الدين أن يحضر إليه ، فاعلم الغراندوكا الأمير بذلك ، فأجابه الأمير : أن أمرتمونا بالذهاب فالأمر لكم . ثم أن الغراندوكا كتب إلى حاكم مسينا يوصيه بالأمير ، وجهّز له مركبًا فسافر الأمير فخر الدين إلى مسينا وبقي الحاج كيوان عند عياله . ولما وصل الأمير إلى مسينا أرسل حاكم مسينا رجالاً لملاقاته وأنزله في دار عظيمة ، وبقي عنده مدة ثم سافر إلى إسبانيا[1] والأمير صحبته . ولما وصل خرجت الوزراء لملاقاته ودخل حاكم مسينا والأمير فخر الدين على السلطان فترحّب بهما وأكرم الأمير إكرامًا زائدًا وأخلى لـه دارًا عظيمة ، وخرجت عيال الأمير من المركب ، ودخلت الدار المعدّة لهم ، وبقي الأمير عند سلطان إسبانيا ما ينوف عن السنة[2] . فأكرمه السلطان وأعطاه أموالاً جزيلة وتفرّج على تلك البلاد ، واتفق أنه كان في ذلك الوقت ثلاثة مراكب أميرية مسافرة من إسبانيا إلى الشرق فدخل الأمير على السلطان وطلب منه إن يأذن له في السفر إلى بلاده بعد ما كان أعلمه بأحواله ، وكيف فارق أخوه وولده وعياله تحت غضب الدولة ، فأذن له السلطان بالسفر وأعطاه مؤونة تكفيه للوصول إلى بلاده ، وأمر لـه بعشرة آلاف ذهب . فودّعه وأنزل عياله في المركب وسافر إلى ليكورنا وخرج هناك إلى الغراندوكا وسلّم عليه ، فسأله عن أحواله فأخبره بكلما جرى له . ثم أخبره بما توقّع أي بما أنه وجد مراكب مسافرة إلى الشوف فقصد الذهاب معهم فأذن له بذلك ، وقال له : خذ معك بعض أناس من جماعتك ، وباقي جماعتك وعيالك فليبقوا هنا بكل إكرام لبينما ترجع . فقبل الأمير ذلك ، وأعطاه كلما يحتاج من الذخيرة وودّعه وسافر .

وبقيت المراكب سائرة إلى أن وصلت بين صور والناقورة (أي ناقورة عكا) فنزل الشيخ خطّار الخازن وتوجه إلى دير القمر ليعلم الأمير يونس فيلاقوا الأمير إلى الدامور ، ولما وصل إلى قرب قرية دير بسيم تصادف مع إنسان من أرفاق الأمير يونس

---

(1) لم يذكر الخالدي ولا الدويهي ولا من كتبوا تاريخ الأمير فخر الدين أنه سافر إلى إسبانيا ، بل ارتحل إلى بعض الجزر والمدن الإيطالية التابعة لملك إسبانيا آنذاك .

(2) انفرد الأمير الشهابي بهذه الرواية دون غيره .

فعرفه وسأله عن أحوال البلاد ، فأخبره أن الأمير يونس في الدير وضامن البلاد وهو بألف خير ، وأنه ضامن صيدا وبقية الأماكن . ثم توجّه معه يعقوب هذا إلى دير القمر ودخلوا على الأمير يونس وبشّروه بقدوم أخيه ، ففرح فرحًا عظيمًا وصار في جميع الشوف فرح عظيم . ثم إن جميع أهالي البلاد توجهوا برفقة الأمير يونس إلى الدامور ، وكان الأمير فخر الدين أعطى الشيخ خطار ثلاثة أسهم وقال له متى حضر أخي إلى الدامور ، ورأيت المراكب أقبلت فارم الأسهم في الجو بعد ما تشعلها . ولما وصلوا إلى الدامور وأقبلت المراكب رمى الأسهم ، فتحقق الأمير أنهم حضروا لملتقاه فقربت المراكب إلى البر ورمت المراسي ، وابتدأت القوارب تأتي إلى البر وتأخذ الرجال ليسلّموا على الأمير ويرجعوا . وبقي الأمير يونس عند أخيه حتى انتهوا ، وأعلمه بكل ما توقّع في غيابه . ثم إنه طلب منه أن ينزل إلى البر لكي تراه الناس لأن أكثر الأهالي حضروا إلى ملتقاه من كسروان إلى الشوف ، فنزل إلى البر وبقي الأمير يونس والبعض من أعيان البلاد في المراكب لأن القبطان لم يرض أن يسمح للأمير بالخروج بدون أن يكون عنده رهن عوضه في المراكب لكونه وعد الغراندوكا بالرجوع ، وبقي الأمير في البر ثلاث ساعات ونظره الجميع وسلّموا عليه[1] . ثم رجع إلى المركب ورجع الأمير يونس ومن معه .

وبعد ذلك رفعت المراكب مراسيها من الدامور وأقلعت فحملها النوء إلى رأس الخنزير قرب انطاكية ، فرسوا هناك مدة لأخذ المال والذخيرة ، ثم سافروا غربًا . وعندما وصلوا بين قبرص وبلاد قرمان صادفهم نوء شديد ساقهم إلى جزيرة زنتوا في حكم البنادقة (زانته وسفالونيا[2] غربي بلاد اليونان وتابعة لها الآن) ولبثوا في البحر يحملهم النوء إلى أن دخلوا جزيرة مالطة ، ولما علم أهلها بالأمير فخر الدين أرسلوا ودعوه إليهم لأن أخباره كانت معلومة في جميع بلاد الغرب . فنزل هو والقبطان والتقوا بكران ما يسطروا حاكم مالطة فأكرمهم غاية الإكرام ، وأطلقوا له المدافع من القلعة والأسوار وبقي عنده ثلاثة أيام يتنزّه ويتفقّد خندق المدينة والحصون ، ثم أنهم

---

(1) انفرد الأمير الشهابي بذكر نزول الأمير فخر الدين إلى البر .

(2) ما بين الأقواس عائد إلى ناشر الكتاب ، والجزيرة هي كفالونيا وليس سفالونيا .

صنعوا لـه وليمة في بستان ما يسطروا لأنه من عجائب الدنيا . وبعد ذلك ودَّعهم وشكر فضلهم ورجع إلى المراكب ، فأرسل له زادًا من جميع أصناف المآكل ، وسافرت المراكب قاصدة ليكورنا ، فوصلوها ورجع الأمير إلى الدوكا وكانت مدة غيابه سبعة أشهر . وقد صادفوا في البحر أهوالاً عظيمة وسلَّم على الغراندوك فترحّب ، وسأله عن بلاده فأخبره بكلما جرى في غيبته من المظالم عليه وعلى أقربائه . فهذا ما وقع للأمير فخر الدين في سفره .

وأما ما كان من الأمير فخر الدين فإننا ذكرنا قبلاً أنه حضر إلى الدامور ورجع إلى المراكب . فأرسلت له مكاتيب من جركس محمد باشا ولم تصل له ، لأنه لما كان عند الدوكا سافر إلى مدينة بيزا وأقام هناك نحو سنة ، ثم حضر إلى الدوكا إعلام وتوجه إلى نابلي ، وأخذ الأمير وعياله معه وأنزل الأمير في دار عظيمة ، وحصل له إكرام زائد وبقي مدة في نابولي ورأى جميع الصنائع والبساتين العظيمة ، ورأى الجبل المثقوب من مدينة نابولي إلى بلد يقال لها البصولة ، ورأى المحلات التي يصنع فيها الكبريت وهو أصله تراب كيف يصنعونه في القدور ويحرُّونه إلى أن يذوب ، ثم يصفّونه ويصنعونه أقراصًا . ورأى الأماكن التي يوجد فيها تراب الكبريت وأنهم يعرفونها من اللهيب الذي يصعد من الأرض شبه النار (بركان يزوفس) وهذه النار من خواصها إذا وضع الحطب اليابس عليها فلا يحترق ، وإذا وضع الحديد يذوب لساعته (لا صحة لذلك)[1] . ويوجد خارج المدينة جامع عظيم ذكروا أنه من عهد الملوك الفاطميين . وفي هذه المدينة ثلاث قِلع : الواحدة منها مبنية في البحر ، وشاهد الأمير فخر الدين في نابولي عجائب لا توصف ، ومن جملة الأشياء التي رآها صخرًا مثقوبًا يخرج منه الدخان (بركان يزوفس) وفوق ذلك الصخر قبة ، فإذا أصاب أحد داء المفاصل يرقد بتلك القبة إلى أن يعرق فيبرأ . وفي أحد الأيام حضر أناس إلى الأمير فخر الدين وسألوه إذا سافرنا إلى بلادك فكم يلزمنا من الرجال ، فأجابهم : لا أعلم ولا أقدر أكفل إلا نفسي . فقالوا له : وإذا لم يحضر معنا أحد أفلا يبيعنا أهلها الذخيرة اللازمة؟ فقال لهم أنتم تعلمون قوة دين الإسلام وعظم قوة آل عثمان ،

---

(١) كل ما ورد بين الأقواس هو من تعليق الناشر .

والذي يقصد أن يقهر الملوك فلا يتّكل على مشترى الذخائر من الناس ، فصعب عليهم هذا الجواب . ثم سألوه كم كنت تجمع من العساكر في بلادك؟ فقال : لما كان المنصب لي كنت أجمع نيفًا وعشرين ألفًا ما عدا الذين يتأخرون في البلاد لأجل المحافظة ، وأما الآن فليس لي حكم إلا على نفسي ، فتعجّبوا من جوابه وتركوه . ومن ذلك الوقت لم يعد يصر له واجب كالمعتاد وبقي يبيع من المصوغات الذي عنده ويصرف . وفي أحد الأيام دخل إليه القنصل الذي حضر معه من صيداء ومعه مكاتيب إلى الأمير من سلطان فرنسا يقول له فيها : لقد بلغنا دخولك إلى هذه البلاد ، ومرادنا أن نتعرف بك ونرسل مكاتيب توصية إلى سلطانك فيك ، لأننا وإياه أخوان . فما أراد الأمير أن يذهب إليه بل أرسل جوابًا يتشكر من أفضاله ويعتذر إليه . وفي ذلك الوقت جاء أحد الأمراء إلى الشيخ ناصر الدين الذي كان عند الأمير وقال له لقد أخبروا الدوكا أنكم عاملون مكانًا للصلوة مثل الجامع ، فقال : ليس لذلك صحة . ثم جاء أناس إلى الأمير وقالوا له لقد سمعنا أنكم تصلون جملة وعملتم مكانًا خصوصيًا وله مأذنة . فقال الأمير : صحيح أننا نصلي ولكن ليس في محل خصوصي . فقال له : نحن لا نمنعكم عن الصلوة . وبعد ذلك رجع الشيخ ناصر الدين إلى الأمير وقال له يوجد أناس يريدون أن يجتمعوا بك في جنينة الدوكا وسار قدامه ، فلما دخل الشيخ ناصر الدين إلى البستان نظر الدوكا وحاكم نابولي جالسين هناك فسلّم عليهم وجلس . فقال له الدوكا : مرادنا أن نرسل معك كلامًا إلى الأمير . وعرض عليه مكتوبًا من ملك إسبانيا يقول فيه : إن كان الأمير فخر الدين يعتنق ديننا نولّيه حكمًا قدر ما كان يعطيه سلطان المسلمين وأكثر من ذلك بأضعاف ، وإن كان لا يرضى بذلك فإن أراد أن يقيم أو أراد أن يرجع إلى بلاده فله الخيار . فرجع الشيخ ناصر الدين وأعلم الأمير بذلك فقال له ارجع ردّ الجواب وتشكرّ من أفضال السلطان وقل له : إننا لم نأت إلى بلادهم في طلب حكم ولا دين بل جارت علينا الحكّام فدخلنا بلادهم نحتمي بها ، فإن رضوا بنا أقمنا ولهم الفضل ، وإن أرسلونا إلى بلادنا فهو المراد . ثم أنه بعد عدة أيام حضر مركب من فرضة صيداء ومعه مكاتيب إلى الأمير من والدته تعلمه أنها رجعت من الشام وأرسلت له أوامر من جركس محمد باشا فيها تطييب خاطر الأمير ، وإن الرسل ذهبوا إليه فما وجدوه

ورجعوا ومعهم الحاج كيوان بعياله . وذكرت أنها صارت امرأة كبيرة في العمر وتريد أن تراه قبل موتها ، وأقسمت له بتربيتها لـه . ولما وصلت المكاتيب توجّه الأمير فخر الدين إلى الدوكا ، وقد انشرح صدره وسئم الغربة ، وكبرت نفسه عنده مما كتب له ، وقال له : هذه المكاتيب أتتنا من الوالدة . وقد أقسمت عليّ أن أتوجه وأنا لا أقدر أن أخالف أمرها . فإن لم تأمرني بالسفر فما يبقى عليّ خطيّـة . فقال الدوكا هل تريد أن تسافر في هذا المركب ولو لم يكن فيه عدّة حرب؟ فقال الأمير : إن المركب سافر مرتين وثلاثة ورجع سالمًا وما أحد اعترضه . فقال الدوكا إن أردت السفر فلا نمنعك . ففرح الأمير بذلك . وأعلم أهل بيته ففرحوا هم أيضًا . وكان قد تُوفّي لـه ابنة فأقسمت زوجته أنها لا تدفنها في بلاد النصارى . فوضعوها في صندوق مدهون بالقير . وثاني يوم أنزل عياله ولوازمه إلى المركب . ولم يبق شيء يعيقه عن السفر غير ورقة الإجازة .

وبقي الأمير يطلب الورقة من الدوكا وهو يماطله ، وكان السبب في ذلك أنا أناسًا أفهموا الدوكا أن الأمير فخر الدين قد صار يعرف البلاد كما هي ، ويُحتمل أن يتوجه إلى اسلامبول فيخبر الدولة عن كلما وجد في بلاد النصارى وأحوالهم . فندم الدوكا عن السماح له في السفر ، وبقي ثمانية أيام وعياله في المركب ، وكلما طلب ورقة الإجازة يحاوله الدوكا . وكان عند الدوكا ترجمان اسمه قارلو وكان يحبّ الأمير ، فاستأذن قارلو أن يذهب إلى المركب ليطيّب قلب العيال ، ويرجع فأذن له . ولما نزل الأمير إلى المركب أخفى صندوق بارود تحت عياله ، وقال في نفسه إنهم إذا لم يعطونا إجازة السفر يكون في نيتهم الغدر ؛ فأحرق نفسي وعيالي . ورجع من المركب على هذه النيّة ، وذهب إلى الدوكا يطلب منه ورقة الإجازة . فقال للدوكا : نحن ما نزّلنا عيالنا إلى المركب إلا بأمرك . وقد صار لهم الآن ثمانية أيام بالانتظار . فسأله الدوكا إلى أين تريد أن تذهب؟ فقال الأمير : إلى صيداء . فقال : من هو حاكم صيداء؟ قال له : ولدي! فقال له : أما تخاف من أهلك وبلادك؟ فقال الأمير : وكيف أخاف وهم كلهم أخوتي وأولادي وتابعي؟ فقال : ألا تخاف من العثمانيين؟ فقال الأمير : أنا قاصد أن أنظر والدتي وأهلي وإن جرى لي اضطهاد فالدنيا واسعة . فقال : ألا تذهب إلى اسلامبول؟ فقال الأمير : لو كنت قادرًا على الذهاب إلى اسلامبول لما دخلت

بلادكم . وكان ظنّهم به أنه يذهب إلى اسلامبول ويخبر عن بلادهم وأحوالهم . فلمّا تحققوا أنه لا يقدر على الذهاب إلى إسلامبول قال له الدوكا : فليطب خاطرك غدًا نعطيك ورقة الإجازة مع قارلو الترجمان . ولما أعطاه الورقة أخذ الأمير الكيس الذي في جيبه وأعطاه للترجمان . وقال له : خذ الورقة إلى العيال وطيّب خواطرهم . ولما طلع الترجمان للمركب وأعطى الورقة للسيدة خلعت سوارها عن زندها وأعطته للترجمان لأجل بشارته . ثم توجّه الأمير إلى الدوكا ليودّعه ونزل في المركب وكان ذلك في 27 رمضان وسافر من نابولي ولم يزالوا مقلعين إلى أن أشرفوا على مرسى عكا ، فصادّهم الريح وما أمكنهم الدخول فقصدوا ميناء حيفا ، ولم يقدروا أن يدخلوها أيضًا . ثم اشتدّ عليهم الريح حتى انكسر قريّة القلع الكبير ويئسوا من السلامة ولبثوا طول الليل حتى قدروا سمّروا القريّة . وما أصبح الصباح إلا وهم بقرب غزة وهناك سكن الريح وهجع البحر .

وكانوا وهم مارّون بين نابلي ومسينا رأوا جبل النار ، وكان إذا قربوا منه المركب يسمعون أصواتًا هائلة وحجارة ترتفع وتسقط وهي كالنار ، ومنها ما يصل إلى البحر . وحجر الخفّان من تلك الحجارة التي يقذفها البحر وهذه النار من الكبريت . وقد ذاقوا في البحر مشقّة عظيمة . وبعد ذلك وصلوا إلى ميناء عكا في 9 شوال . ولما قدم الأمير إلى البر كتب مكاتيب إلى ولده الأمير علي يعلمه بقدومه سالمًا ، وأرسل لهم مملوكه مسرورًا فغيّر ثيابه ونزل إلى البر وتوجه إلى صيداء . وفي ذلك الوقت كان عند الأمير علي الأمير ناصر الدين التنوخي ، ومقدّمو بيت أبي اللمع ، وأكابر الشوف لأجل حارة الناعمة . لأن الأمير منذر ألحّ على الأمير علي قائلاً له : أنك إذا لم ترفع جماعتك أصلي الشر معهم . وفي ذلك اليوم وصل مسرور في بشائر السرور ، ودخل على الأمير علي وأعطاه المكتوب فقرأه وما عادت تسعه الدنيا من الفرح ، وجمع الجميع وأعطاهم مكتوب والده بخطه وختمه فأخذهم الرعب وداخلهم الخوف والجزع ، وصاروا يتوسّلون للأمير علي أن لا يسوّد وجوههم قدام والده . وفي ذلك الوقت أمر الأمير علي بالأفراح وكان يومًا عظيمًا . وأما الأمير فخر الدين فحينما نزل إلى البر سأل عن الأخبار ومن هو الحاكم في تلك الديار فقالوا له ولدك الأمير علي وكتخدا مصطفى ، وهو الآن في أبي سنان يجمع المال فأرسل يطلبه ، ولما وصل له

العلم حضر وهو لا يملك عقله من الفرح . وبعد ذلك حضر أخوه الأمير يونس ومشايخ الشوف ومشايخ بلاد صفد وبلاد بشارة والشقيف ، واجتمع كل من هو من حزب بيت معن لعكا ، وقد بلغ الأمير مقابلة بني متوال إلى ابن الحرفوش في مشغرة . وحين حضر الحاج ناصر الدين ابن منكر قبض عليه ، وتوجّه الأمير إلى صيداء فلاقاه ولده الأمير علي إلى جسر القاسمية ودخلوا إلى صيداء بالفرح وإطلاق البنادق . وكانت مدة غياب الأمير خمس سنين وشهرين[1] .

(1) وردت أخبار رحلة الأمير فخر الدين المعني الثاني في تاريخ الأمير حيدر الشهابي الصادر عن دار نظير عبود - بيروت - لبنان - 1993 في الصفحات : 833، 834، 835، 836، 852، 853، 854، 855، 856. 822، 823، 826، 827، 828، 829. كما وردت أخبار مقتضبة عنها في تاريخ الأزمنة للبطريرك أسطفان الدويهي .

ملحق (2)

نماذج من رسائل الأمير فخر الدين المعني الثاني

الرسالة الأولى :

طلب الإقامة في إمارة تسكانا بتوقيع الأمير فخر الدين

الأمير المكرم فخر الدين اشتهيا يقعد في بلدان الأمير المعظم وتحت حمايته الشريفة مع حرمته وبنته وجوارها وولدين صغار يخدموا الباب وستة أم سبعة من خدامة والحج كيوان مع باقي ارفاقه الأوخار الموجودين معه الآن يرجعوا لبلادهم ليعلموا ويخبروا أهله أنه جالس في بلاد النصارى ليسعى بوساطة الأمير المعظم معونة وقوة من البابا وباقي سلاطين النصارى ويرجع لبلاده بعمارة قوية ولذلك طلب من حضرة الأمير المعظم ينعم عليه بهما يحتازه بذلك .

أما الأمير المعظم إذا فهم خاطر الأمير المكرم المذكور أراد يكمل طيبة خاطره معه أنه بكل الأشيا الممكنة يقنعه ورضي بذلك وسهّل أحواله في كل بلدانه وبيريد يعطيه مساكن لايقة في مدينة فلورنصيا وعربة لخدمته وخيل من خيله ومونة وعلوفة من شانه ومن شان جماعته الفين قرش فلورنتيه كل عام ولايمان ذلك العهد ثبت ذلك بخط يده وختمه بمهره وعلمه بخط باصجيه نهار الثاني عشر من أيار سنة ألف ستماية وأربعة عشر مسيحية في مدينة بيسا

[المختم] الأمير فخر الدين ابن معن

مفخر آل معن

فخر الدين

الرسالة الثانية :

موجهة إلى الغران دوق وجدته الغراندوقة بإمارة تسكانا ، وحاملها القس إبراهيم الحاقلاني .

إلى حضرة السنيور القرندوكا والسنيورة مداما حفظهم الله تعالى

إن سالتم عنا وعن أولادنا الجميع بخير من الله وداعيين لكم ان الله يعطيكم مرادكم والقسيس ابراهيم الموراني وصل لعندنا وهو داعي شاكر من إحسانكم الله تعالى يجعلكم دايمين وتذكرة البنك بالدراهم حق الحرير وصلت إلينا والمبلغ الدي باقي علي يدكم حق اليسرا[1] ما وصل إلينا فيكون نصركم علي القسيس ابراهيم في خلاص المبلغ ويشتري لنا به جوخ وقماش على يد أحد من قبلكم ويجيبوا معه وأما المبلغ الدي في البنك وصل لنا تمسكه[2] يضل باقي لنا في البنك هو وفايدته في كل سنة إلي زمان نعتازه نحنا واولادنا يصال إليهم بفايدته على قدر السنين الدي بيقعد في البنك وفي كل سنة تحسبوا فايدة الدراهم وتكتبوها عندكم وتحطوها في البنك بلفايده ولا يضيع لنا شي لان خاطرنا طيّب بالله وبكم ولا تعوقوا القسيس ابراهيم يعاود لعندنا بالجوخ والقماش علي قدر الدراهم الدي اعطاها من دراهمنا ثمن اليسرا والدراهم الدي اعطيتوها إلى البربير[3] وإلى معلم الجسر والى الخباز سلمناها إلى قنصلكم علي يدهم وكملنالهم علي الزمان القعدوه عندنا متلما كتبوا لنا ما بقا لهم عندنا شي أبدًا وأما معلم الجسر بعد باقي عندنا ومتي ما تخلص شغله تكمل له اجرته ومنوجهه إلى بلاده وخاطره فرحان ونحن وأولادنا واعيالنا داعيين لكم دايمًا بالخير ومرادنا أن نكون نحنا وأولادنا دايمين في خاطركم علي المحبة والصداقة الدي هي مامولنا ومرادنا دايمًا علي طول الأيام والزمان

---

(1) الأسرى .

(2) التمسك : الإيصال .

(3) البربير : الحلاق والطبيب الذي يعالج بالفصد والحجامة .

تحريرًا في شهر ربيع الثاني سنة ألف واثنين وأربعون محمدية[1]

[الختم] خادمكم
مفخر آل معن فخر الدين
فخر الدين معن

الرسالة الثالثة :
موجهة إلى الغران دوكا وسنيورا مداما

إلى حضرة سنيور قان دوكا وسنيورا مداما حفظهم الله تعالى

مرادنا منكم تاخدوا ثمن اليسرا من ابراهيم الموراني الذي من بلادنا من جبل لبنان منخاف أن الدراهم إذا ضلوا معه في يد ابراهيم الموراني يضيعهم علينا إذا أخدتم الدراهم منه وصاروا عندكم بيطيب خاطرنا . والحكيم والخباز والبنا أعطيناهم اجرتهم علي قدر ما عينتم لنا في الزمن الذي قعدوه عندنا علي قدر استحقاقهم علي يد القنصل الذي كان عندنا من جماعتكم ونحن وأولادنا بخير يبوسو يدكم ونحن اليوم في تعب كثير الله يعيننا كتب نهار الثلاثا يوم عشرين في محرم سنة ثلاثة وأربعين وألف محمدية[2]علي صاحبها الصلاة والسلام

[الختم] سربتور[3]
مفخر آل معن فخر الدين
فخر الدين معن

---

(1) توافق سنة 1632 م .

(2) 26 تموز (يوليو) 1633 .

(3) servitore أي خادم .

لغة الرحلة	لغة الرحلة
بقا يتردد إلى عنده	أمرهم أن يعاودوا
متحسّب منهم	رايحة الطاعون (رائحة)
يستكري	دخّلوا إلى البيت
كان واسق وتخلّص	وقلّعوا الأمير جميع الحوايج
الكري	وجا حاكم البلد في التهنّي
مالنا خلاص	مرادنا ان تنزّلوا لنا جماعتنا
انكان ما بتروح	الدار التي برّات المدينه
نزّل عياله	يحطوا حقّها في وعا
شار على حضرة الأمير	سايلوهم عما صار
أوهب لكل واحد منهم	عملوا آلة الحرب
يصْلي معهم كَوْن	مشّوا عليهم
أخذ منه جريمه (غرّمه)	ايقنوا في الأخذ
ولم يعطهم من المال ولا القطمير	بقي عندهم ضيق كلّي
متوجّه في المواسطة	صار انشراح وطيبان خاطر
تحاكوا مع الريّس	لم خالل بها شي من بنيانها
ايش معك	طبّت بعيد عن حيطها
افرق الربح بينهم (فرّق)	زيادة حرمه
عدّت على جزيرة سردينيا	جوّات المدينه
ارما المرسَه	مهما جا بضايع
يعرفوا بالعربي والتركي	الجميع ياخدوا كمركه
من أين جايين	جميع ما ينباع وينشرا
ايش هذه المسلمين الذي معكم	لهم عليه عوايد
جا يلتجي إليهم	داير المدينة
كان زعل في المركب	ما مراده ياكل إلا من ذبيحة المسلمين
حتى سدّدوا فيه حالهم	صار يسير في مالطه

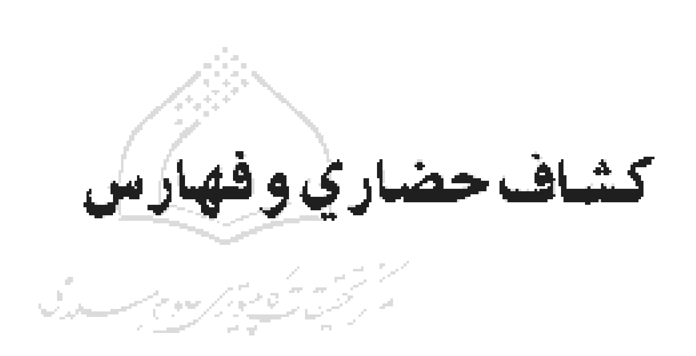
لغة الرحلة	لغة الرحلة
استفكه الأمير	ويشرّقوه سبيكه أخرى
ما احد ينقل عدّه	كل وجبة بارود
قوي البرّاني على الجوّاني	وابنا الدوكا (وبنى)
يدهنوا الوجه بالحبر	لا يودّي خزانة
على فرد كلام	كنّ الريح وهدي البحر
يلحلحوهم زوم	أيسوا السلامة
يسكبوه على الشياب غمرها	أرسل يطيّب خواطر الطايفه
في راسه منزّل رصاص	حفظ الخبز والملح
حتى يعلّم موضع الضربه	صار له رعايه كليه
الخيال الشاطر	بعد ما صار له حال
يركّبوا الخيل إلى الأولاد	ولا عرف له مآل
ويقافوا الناس يتفرّجوا	آخذين بخشيش الطايفه
يحطوا بيرق في راس الزقاق	زعل الأمير من بلاد غران دوكا
كل من يحط شي	أراد أن يشرح صدره
يركبوا رجال على بغال شموص	تعين لهم خرج جزيل
ليط البغال إلى ورا	وقت برضه خاطر
قلة مطاوعتهم	مطبلقين في كل موضع
وهم في الزلط في الوزره	كله مبحّص ببحص ملون
الخنزير الذكر البرّاوي	لهم نياحه بال
يعملوا له جوره	تشلحه برات المدينه
يلبّسوا رجّال الحديد	بيعمّلوا البقر
يظل يتماعك الرجل هو والخنزير	يقلبوا أرض الزرع
ناس ماشيه وسط الحمرة	يوكّروا تحت الأرض
يمشّوا فيه شختوره	يداووه من غير منّيه
فرّجوا الأمير	من الذي تحت القسط

لغة الرحلة	لغة الرحلة
ما يحط الضعيف درهم الفرد	يبقى جوّات الشبكه
كرامة ترباته	يربُوه على التدوير
تجيبه الحرمه ملفوفا	لا يفرطوه بالعصا
ينتظروها من جوّا	بعض الطرق (أحيانا)
يستلقّوه	يدندلوهم بكثرة
يحطوّهم في القراءة والصناعه	لأجل تعزيل الأسكلة
يدوّروهم في المدينه	تجلّد من الثلج
يجوّزوه بنت منهم	يخزنوه في بياره
المتربّين في الدير	من عشيّه يلموهم في دفتر
الناس الذي برّا	إن أمرتونا نروح
من كيس السلطان	إنكان لك خاطر
السيرة عندهم	لبين ما يصل إلى مسينا
يرهّبوا فيهم البنات	استقبله مليح
ناس بعلوفه ينطروه	مشي وجه الصبح
أراد صاحبه يستفكه	جميع أهل الشوف جرْد
يشيلوه في الملعقه	يبلّوا شوقهم من رؤياك
ميّل عن الطريق	ومتعطّشين إلى شوفتك
ينقام عليه الصياح	جابوا بعض بقر وجمال
يكون ربط ثاني	عزموا حضرة الأمير
سلاحاته مشعّبه	يعمل لقمه
يهدّوه حتى يصل	ما يقدر يقاصره
يكونوا ازلام	ليلا يصير كلفه زايده (لئلا)
الأرنب رافقه على الكلبين	تزايد نشوها
قوام يروحوا يشمشموا عليه	ألزمه بالكلام
يكشّوا الطير عن الهيش	جبر خاطر

لغة الرحلة	لغة الرحلة
تروح معنا	أنا راضي باللقمة وشربة الماء
روح احزم حوايجك	وجابها الترجمان
تعرّا وسبح	فشال الأمير الكيس
قدر إيش يموت	جابها الترجمان
اطلع حتى نتضارب برّا	في أنا جيل انعمل
يشلح ثيابه	يقوم على حيله
ما عادوا داروا بالهم منه	
أرواهم الموضع	
صحيح منصلّي	
اتّا خذ منه	
أحكا للأمير	
وانت ايش تقول	
ما بقي في رقبتي خطيّة	
راح واجا طريقين ثلاثة	
وهالخطرة	
صفاوة خاطرك علينا	
توبتها بتابوت	
وحطّها في أوضه	
ما بقوا متعوّقين	
شالو من جوف المركب	
حطّه تحت الاعيال	
لهم ثمان أيام في هذا الشوب	
عليهم صيام رمضان	
وقعّدوا قباله	
ايش اريد من السلطان	



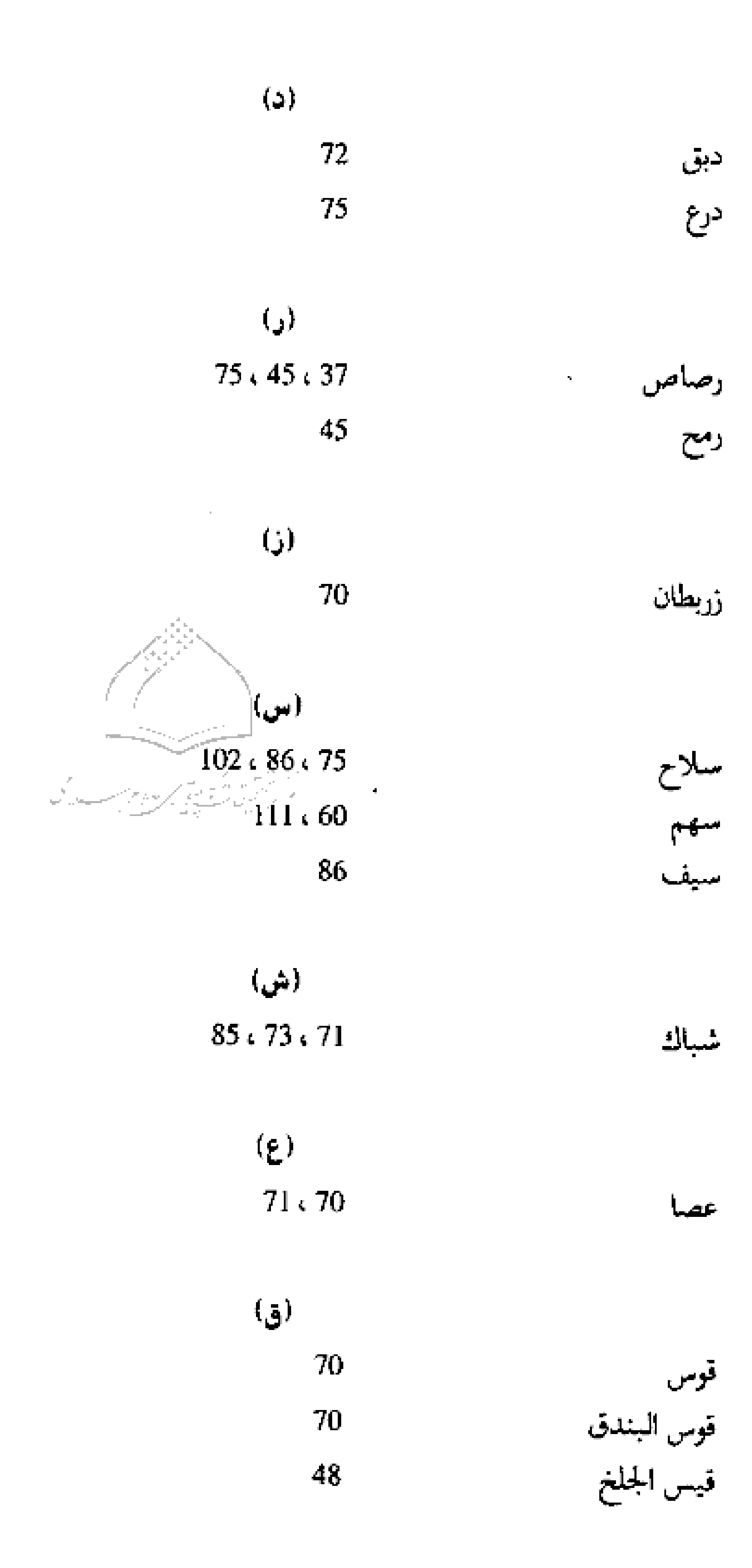
كشاف حضاري وفهارس





أجناس (شعوب، قبائل..)

أسلحة وآلات حصار



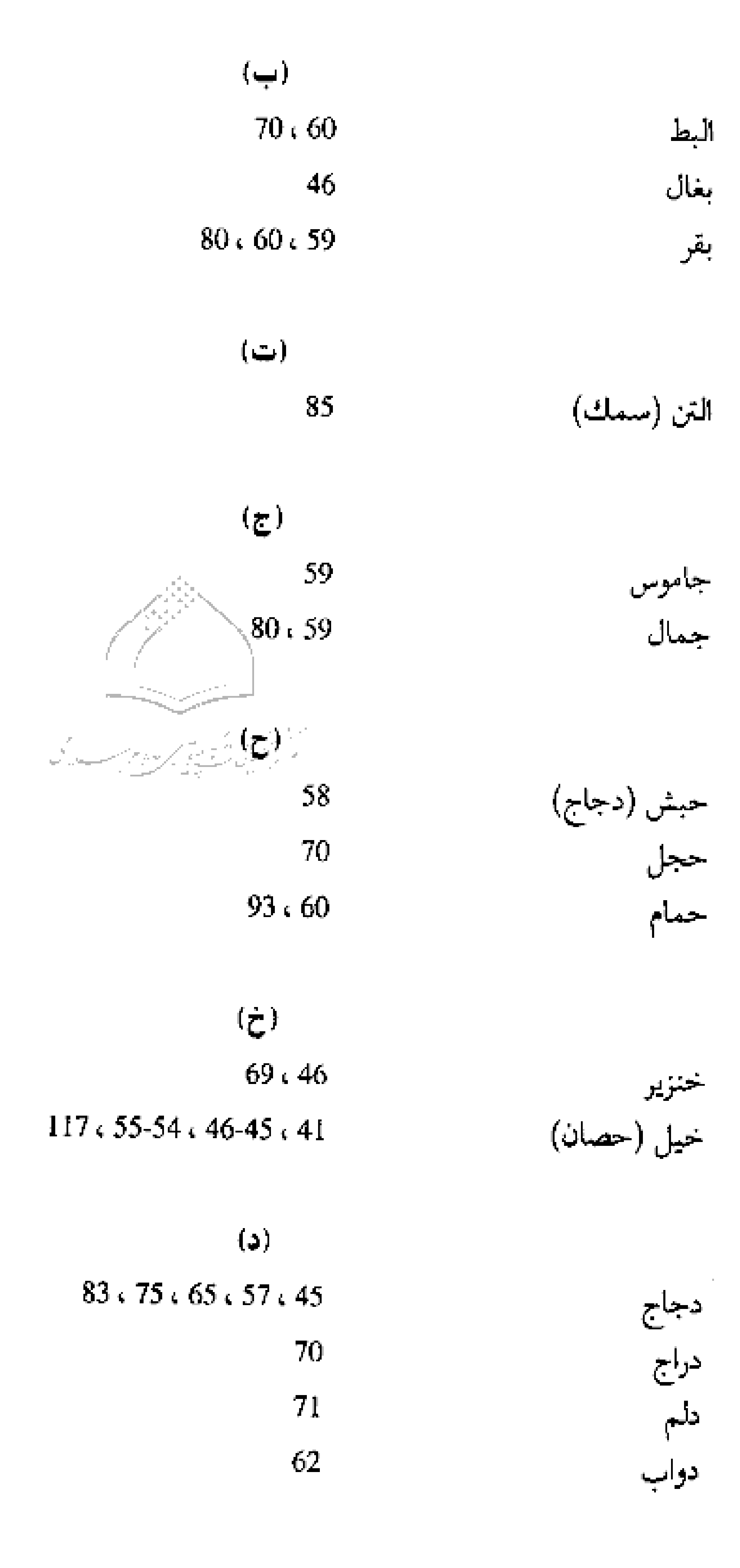
أعلام

أماكن

(أ)

(ب)

حيوانات



طعام وشراب

عقاقير وعطور وألبسة

مصطلحات

معالم أثرية

منشآت

مواد ومعادن



وسائل وأدوات



المحتويات



جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي 2006

«المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياد الآفاق»
نتائج جوائز ابن بطوطة لعام 2006

أعلن «المركز العربي للأدب الجغرافي-ارتياد الآفاق» الذي يرعاه من أبو ظبي ولندن الشاعر محمد أحمد السويدي ويشرف عليه الشاعر نوري الجرّاح عن نتائج جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي لسنة 2006 وهي خمس جوائز في ثلاثة مجالات : ثلاث جوائز لتحقيق مخطوطات الرحلة الكلاسيكية ، وجائزة للرحلة المعاصرة ، وجائزة للدراسات في أدب الرحلة . وأضيف هذا العام مجالان جديدان هما : جائزة الرحلة الصحفية ، وجائزة أدب «اليوميات»

فاز بالجائزة هذا العام عن «تحقيق المخطوطات الكلاسيكية» أربعة محققين هم : د . سوزان ميلار (الولايات المتحدة) ، د . خالد بن الصغير (المغرب) ، د . محمد الصالحي (المغرب) ، أ . قاسم وهب (سوريا) ، وفاز بجائزة «الرحلة المعاصرة» د . خليل النعيمي (سوريا) . وفاز بجائزة «الدراسات في أدب الرحلة» د . نواف الجحمة (الكويت) ، وفاز بجائزة «الرحلة الصحفية» إبراهيم المصري (مصر) ، وفاز بجائزة «اليوميات والمذكرات» فاروق يوسف (العراق) .

وبذلك يبلغ عدد الحائزين على الجائزة حتى تمام دورتها الرابعة 23 باحثًا وكاتبًا عربيًا وأجنبيًا .

الأعمال المتسابقة

تشكلت لجنة التحكيم لهذا العام ، كما في الأعوام السابقة ، من 5 أعضاء من الأساتذة المختصين والأدباء العرب ، وبلغ عدد المخطوطات المشاركة 42 مخطوطًا جاءت من 13 بلدًا عربيًا ، وتوزعت على الرحلة العربية المعاصرة والدراسات بصورة أكبر ، وعلى المخطوطات المحققة بصورة أقل . وقد جرت تصفية أولى تم بموجبها استبعاد عدد قليل من الأعمال لم تستجب للشروط العلمية المنصوص عنها بالنسبة إلى التحقيق ،

واستبعد ما غاب عنه المستوى بالنسبة إلى الجائزة التي تمنحها الدار للأعمال المعاصرة. وقد نزعت أسماء المشاركين من المخطوطات قبل تسليمها لأعضاء لجنة التحكيم لدواعي السريّة وسلامة الأداء.

وحسب بيان الجائزة ستصدر الرحلات الثلاث المحققة الفائزة في سلسلة «ارتياد الآفاق»، والرحلة الفائزة بجائزة الرحلة المعاصرة في سلسلة «سندباد الجديد»، والكتاب الفائز بجائزة ابن بطوطة للدراسات في سلسلة «دراسات في الأدب الجغرافي». والكتاب الفائز بجائزة الرحلة الصحفية في سلسلة «أرض الحدث»، والكتاب الفائز بجائزة «اليوميات» في سلسلة «يوميات». توزع الجوائز في احتفال يقيمه المركز في لندن مطلع العام 2007، ويعلن لاحقًا عن توقيته، ويعقب الحفل ندوة علمية يشارك فيها الفائزون بمحاضرات حول أعمالهم.

جائزتان جديدتان، وثالثة تقديرية

وهكذا تضيف «دار السويدي» هذا العام إلى سلسلة جوائزها جائزتين جديدتين فتصبح جوائز ابن بطوطة 5 جوائز، وتعلن في الوقت نفسه عن جائزة سادسة تفتح لها باب الترشح من العام القادم وهي جائزة ابن بطوطة التقديرية، وتمنح كل عام لشخصية أجنبية أو عربية أثرت حقل المغامرة الأدبية والبحث في أدب الرحلة وأنصفت بأعمالها الثقافتين العربية والإنسانية والعلاقات بين الشعوب، وبنت بأعمالها جسرًا بين ثقافات الشرق والغرب.

شروط الاشتراك في الجائزة:

- يمكن لأي كاتب أو باحث محقق أن يشارك في مسابقة الجائزة بترشيح عمله بنفسه.
- أن يكون النص محققًا وفق قواعد التحقيق العلمية المعتمدة في الأوساط الأكاديمية.
- تقبل المخطوطات التي هي رسائل أكاديمية لنيل درجات علمية.
- من حق الجهة المانحة للجائزة إجراء التعديلات الفنية التي تراها مناسبة على

النص الفائز ليتوافق وصيغة النشر المعتمدة من الدار بالاتفاق مع المؤلف أو المحقق .

- أن يرسل النص في نسخة ورقية واحدة مرفقة بنسخة إلكترونية .
- يمكن لأي مؤسسة ثقافية أو جماعة أدبية غير رسمية أن ترشح شخصية أدبية عربية أو أجنبية لنيل جائزة ابن بطوطة التقديرية .
- تستقبل النصوص والترشيحات على عنوان «دار السويدي» في أبو ظبي ص . ب 44480 أو على البريد الإلكتروني : info@alrihla.com

قبول الطلبات للدورة الخامسة 2007

يفتح باب قبول الطلبات للمشاركة في الجائزة بدءاً من يوم 10 حزيران/ يونيو 2006 ، ويستمر حتى منتصف آذار/مارس من العام 2007.

معلومات عن الجائزة

تأسست جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي سنة 2003 وتهدف إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات ، وهو ميدان خطير ومهمل ، وقد تأسست إيمانًا من الشاعر محمد أحمد السويدي راعي المركز العربي للأدب الجغرافي «ارتياد الآفاق» بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز ، وتكريسًا لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري ، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية ، وإخراجه إلى النور ، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان ، والسفر فيه ، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر ، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي ، لم ينل اهتمامًا يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات . مع التنويه بتزايد أهمية المشروع وجائزته في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم ، وتنعكس سلبًا على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى ، فالأدب الجغرافي العربي (وضمنًا الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن «الآخر» في مختلف الجغرافيات التي ارتادها

رحـالتـهم وجـغـرافـيـوهم ودوّنوا انطبـاعـاتهـم وتصـوراتهم الخـاصـة بهم عن الحـضـارة الإنسـانية والاختلاف الحضاري حيثما حلّوا .

في دورتهـا هذه ، كـمـا في دوراتهـا الـثـلاث السـابقـة ، تواصل الجـائزة التـوقـعـات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة ، من جهـة ، وتشـجيع الأدباء والكتـاب العـرب على تدوين يومـيـاتهم المعاصرة في السـفر ، وحض الدارسين على الإسهام في تقديم أبحاث ودراسات رفيعة المستوى في أدب الرحلة .

الأعمال الفائزة وبيان لجنة تحكيم الجائزة لسنة 2006

اجتمعت لجنة التحكيم ما بين 15 مايو و5 يونيو وتوصلت إلى اختيار الأعمال التالية للفوز بجائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات، والرحلة المعاصرة، والدراسات في الأدب الجغرافي، والرحلة الصحفية والكتابة اليوميات.

وقد اختارت اللجنة الأعمال الفائزة التالية للاعتبارات المذكورة:

أ - جائزة المخطوطات المحققة:

• رحلة الصفار إلى باريس

1846-1845

محمد الصفار الأندلسي التطواني

تحقيق: د. سوزان ميلار، عرّب النص وشارك في التحقيق د. خالد بن الصغير

تكمن أهمية رحلة الصفار في قدرة كاتبها على تقديم أجوبة عن أسئلة من قبيل: أين يكمن سر قوة الفرنسيين؟ كيف تمكنوا من الوصول إلى ذلك المستوى من القوة؟ كيف استطاعوا قهر الطبيعة وإحكام قبضتهم على مسارها بطرق وأساليب مازالت خافية عنا؟ كيف يعيش الفرنسيون حياتهم اليومية، وكيف يربون أبناءهم وخدامهم؟ ما هي أحوالهم التعليمية، وكيف يسلون أنفسهم ويروحون عنها، وماذا يأكلون؟ وباختصار، ما هو وضع حضارتهم، وما هي أوجه اختلافها عن حضارتنا؟ وبالتالي على تسجيل تجربته في صور دقيقة الرسم وذات عمق إنساني. فكانت له القدرة على فتح نافذة على عالم بعيد عن عالمه هو، ونقل مشاهدته إلى غيره. ومن خلال وصفه الدقيق لما هو جديد، ويكاد يكون كل شيء جديدا، نحس بنسيج اللقاء الثقافي: وبقراءتنا لما دونه عن رحلته، نجد أنفسنا أمام فرصة نادرة تتاح لنا لتقمص شخصية أحد رجال الفكر المغاربة في لحظة حرجة تمتحن معتقداته ومشاعره وتوجهاته. إن «موعد» الصفار مع الجديد، على حد تعبير رولان بارت (Barthes)،

يحدث مواجهة أكبر حجما مجد خلالها تجربته مرات عديدة . وتمثلت خلفيات رحلته في أحداث ووقائع أدت ، بشكل عميق ، إلى قلب التصور الذي كان لدى النخبة الحاكمة في المغرب عن قوتها إزاء الغرب رأسا عل عقب . وفي الواقع ، كانت الرحلة في حد ذاتها جزءاً من ذلك المجهود الذي استهدف القيام بمحاولة لتصحيح الخلل والتبصر بمعرفة الأسباب الكامنة وراء الإخفاقات . وقد تميز العصر الذي عاش فيه كاتب الرحلة بالقلق الذي انتاب المغاربة من قدرتهم على مواجهة الغرب المتحكم في جميع مقومات التفوق العسكري . كما تميز أيضا بوجود تخوفات كبيرة من وقع القضايا الخارجية وخطورة تأثيرها على الأحوال الداخلية لنظام اتسم بهشاشته . وكانت هذه القضايا العريضة مطروحة مسبقا قبل الرحلة . وقد ارتأت لجنة التحكيم أن كلاً من تحقيق الرحلة ودراستها التي قامت بها الباحثة الأميركية سوزان ميللر ، وتعريب الدراسة والتحقيق بالعربية يستحقان بامتياز جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات ، ويعتبر العمل الذي قاما به إثراء بيناً للثقافة العربية .

*** النفحة المسكية في السفارة التركية 1589**

علي بن محمد التمكَروتي

تحقيق وتقديم : محمد الصالحي

اختارت لجنة التحكيم هذا النص لجائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات لتمتع تحقيقه بالشروط العلمية واستيفائه هذه الشروط باقتدار علمي .

رحلة مرآوية ، يتقابل فيها السَّفَر واللغَة . اللغة مرآةُ السَّفَر . والسَّفَر مرآةُ اللغة . لم يَسْعَ التمكَروتي في سفارته ما بين المغرب والمشرق وهو مندوب السلطان المغربي أحمد المنصُور الملقب بالذهبي ، للقاء السلطاني العثماني مراد الثاني ، إلى وضع ذاته في صُلب رحلته ، ولا إلى جَعل هذه الذات المرآةَ التي تنعكس عليها الجغرافيا والتمظهُرات الثقافية العامّة من عُمرانٍ وعادَاتٍ . ولا سعَى التمكَروتي ، وهذا هو المدهِش ، في هذه الرّحلة ، إلى اكتساب بطولة أو إعلاء شأن الذّاتِ المغامِرَة . بل عكسَ كل ذلك سعى إلى تثبيت صُورَة الفقيه الملفّع بعباءة الأدَب ، والأديب الملفّع

بعباءة الفقيه . وفي اعتقاد المحقق أنه نَجح في ذلك .

في هذه الرحلة يصف الرحالة مدينة القسطنطينية ، ومراسيم الاستقبال في القَصرِ . وعلى رغم أن قَلم التمكَروتي يَحرَنُ إذ يُشيحُ ببصره عن المكامِن التي يُمكنُ أن يقدحَ زَنَادَها فينبعث منها المدهش والغريب مما شاهده في عاصمة الخلافة ، فإن نص رحلته يعتبر بامتياز وثيقة بالغة الأهمية عن سلطنتين وسلطانين وقصرين والطريق بينهما في القرن السادس عشر . ولعل وصف أهوال البحر من بين أميز ما دونه هذا الرحالة المولع باللغة والشعر والبيان . وكما يلاحظ المحقق فإن في مظنُون التمكَروتي أنه لا يمكن فَهمُ الآنِي والآتِي إلاّ بالاتكاء على الماضِي . الماضِي هُنا هو ذاكرة التمكَروتي المحشوَّة بالشِّعرِ والحكمة والبلاغة المنمطة المسكوكة التي لا يَبذُل صاحبُهَا أي جهدٍ في تطويعها . كلّ دَيْدنه ومبتغاه أن يكشف عن عُلوّ كَعْبِهِ في الاستظهار .

*** رحلة الأمير فخر الدين المعني الثاني إلى إيطاليا 1613-1618 م**

حققها وقدم لها : قاسم وهب

تُعد رحلة الأمير فخر الدين المعني الثاني من الوثائق النادرة في بابها ؛ فهي من أقدم المدوّنات العربية التي وصفت جوانب مهمة من مدنيَّة أوربا في مطلع القرن السابع عشر ، فبعض المدن التي زارها المعني أو أقام فيها ضيفًا على آل ميديتشي شهدت بدايات النهضة الأوربية الحديثة التي عمّت آثارها فيما بعد أرجاء المعمورة كافة ، وكانت إقامته ضيفًا على آباء النهضة الأوروبية آل ميديتشي لخمس سنوات سببًا في ما حاول إحداثه من نهضة في بلاد الشام . دفع ثمنها عنقه وعنق ولده . ولعل المثير أن الملاحظات المدونة في هذه الرحلة تجعلنا نكتشف أن التفاوت الحضاري بين العرب والغرب آنذاك لم يكن كبيرًا ، بل ربما كان بوسع العرب تجاوزه لو لم يقُم العثمانيون بقطع الطريق على بوادر التطورات الرامية إلى تأسيس نهضة عربية تستلهم نهضة الغرب ، أو تستفيد من بعض منجزاتها . ومما يزيد من أهمية هذه الرحلة أن صاحبها رجل دولة محنَّك ، ومحارب لا يلين ؛ لم يتوان عن الوقوف في

وجه أكبر إمبراطورية في الشرق دفاعا عن شعب أرهقته المظالم ، وأنهكته الحملات العسكرية المتوالية التي طالما شنها عليه الحكام والولاة العثمانيون .

والميزة التي لا تقل أهمية عما سبق هي اللغة التي كُتب بها هذا النص ، وما تحمله من دلالات تعكس المستوى الذي انحدرت إليه أساليب الكتابة في زمن تفشّى فيه الجهل والتجهيل بين الخاصة والعامة على السواء .

أخيرًا ولعل من الضروري الإشارة إلى أن اللغة التي كتبت بها الرحلة تغري المعنيين بالدراسات اللغوية بالنظر في تطور اللهجات المحكية في بلاد الشام خلال القرون الأربعة الأخيرة ، وما طرأ عليها من تغيير ، وما حملته من مصطلحات ، وما خالطها من مفردات مستحدثة أو مُعرَّبة .

اختارت لجنة التحكيم هذا النص للفوز بجدارة بجائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات لسنة 2006 لكونه يعتبر كشفًا علميًا وتاريخيًا اجتهد محققه في كشفه وتحقيقه وزوده بمقدمة ضافية تلقي ضوءاً على نص لا غنى عنه لكل قارىء مهتم .

ب - جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة:

*** قراءة العَالَم**

رحلات في كوبا ، ريو دي جانيرو ، مالي ، لشبونة ، والهند الأوسط

خليل النعيمي

حاز هذا الكتاب على جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة لخصوصية الرؤية والتجربة والكتابة التي اجتمعت لصاحبه بين دفتيه . فالرحالة هنا ليس سائحًا وكتابه ليس دليلاً للسائحين . إنما «الرحّالة قارىء! لكنه لا يقرأ الكلمات ، وإنما العلامات .» بهذا الوعي يكتب الرحالة والروائي خليل النعيمي كتابًا جديدًا في السفر . 6 نصوص عن 6 رحلات قام بها الكاتب حول العالم غطت أربع قارات ، ووقفت على جغرافيات الأرض والناس ، وعلى الروح الإنساني بصفته كلاً لا يتجزأ مهما اختلفت اللغات وتباينت التجارب والأعراق . لأن «التعوّد على رؤية الأشياء ،

والكائنات ، نفسها ، يصيبنا بالعمى» نحن نسافر ، فنحن «لا ندرك ، وإنْ كنا نعلم أن الكون مليء بالشغف والأساطير الحية ، إلا عندما نسافر .» ، فالسفر بهذا المعنى ، ومن خلال هذه الرؤية الشفافة والعميقة بحث عن الحرية . إنه ، أيضًا ، محاولات متكررة لاستكشاف الذات من خلال استكشاف العالم ، والتعبير عن الألم الشخصي من خلال لمس ألم الآخر المجهول ، والخلاص من خلال البحث عن أمل جديد فـ«للسفر وجوه! والوجه الذي يهمنا هو الذي يجعلنا نتشبّث بمشاهد الكون ، وكأنها لم تكن إلا لنا» .

بهذه الرؤية النافذة يكتب المسافر ، وقد سافر مغامرًا لئلا يريد أن يعود بالوعي الذي بدأ به . فالرحالة بالنسبة إليه «لا يجوب العالم بحثًا عن الصورة ، وإنما عن الجوهر .» ، ولأجل هذا السمو الروحي في التعبير عن الأرضي ، والبراعة في الكتابة حاز كتابه ، بامتياز ، على جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة لسنة 2006. وترى فيه لجنة التحكيم إضافة حقيقية إلى أدب الرحلة المعاصر ، ولعله أن يكون من تلك الكتب التي ستبقى طويلاً في أيدي القراء .

ج - جائزة الدراسات في الأدب الجغرافي:

*** صورة المشرق العربي**

في كتابات رحالة الغرب الإسلامي

في القرنين السادس والثامن الهجري 12 و14

د . عبد العزيز الجحمة

دراسة بانورامية قيمة لصورة المشرق العربي من خلال مدونات الرحلات المغربية والأندلسية التي تتجاوز محتواها كمجرد مذكرات ، إلى كونها مصدرًا من مصادر التأريخ للمشرق العربي في ثقافاته وحضاراته الإنسانية المختلفة ، بحيث إن الرحلات المذكورة تعتبر - من هذه الناحية - تأريخًا لما أهمله التاريخ . ولما كانت هذه الرحلات من إنتاج مغاربة ، بينما أحداثها جرت في مسرح بيئات أخرى مشرقية كالحجاز

ومصر والشام والعراق وفي المسافات التي تفصلها ، فإن اهتمام مؤلفيها انصب على معالم جديدة عليهم ومظاهر وأمثلة ومعطيات ونظم وأشخاص من صميم البلدان التي حلوا بها ، وهو ما أثرى تجاربهم الشخصية .

ولما كانت قلّة من المتخصصين والباحثين في التاريخ الوسيط قد تناولت بالدرس مجالات الحياة في المشرق العربى من خلال الرحلات المغربية والأندلسية ، فلا بد من الإشادة هنا بهذا الجهد العلمي المركز الذي تناول رحلات المغاربة والأندلسيين إلى المشرق بالدراسة والتعريف والتحليل واستخلاص النتائج . ومن جريدة الكتاب يمكن للقارىء أن يلاحظ ما اعتمد عليه الدارس من مصادر ذات أصول ومشارب متنوعة . ساعدته على استكشاف وتركيز تلك الصورة التي رسمها الرحالون المغاربة والأندلسيون للمشرق العربي في العصور الوسطى . وكما جاء في بيان لجنة التحكيم فقد أنجز الدارس عمله ببحث دؤوب وذهن متقد ، وعقلية منفتحة وموضوعية لافتة للانتباه ، فاستحق على هذا العمل العلمي الممتاز جائزة ابن بطوطة للدراسات في أدب الرحلة .

د - جائزة اليوميات:

*** لا شيء .. لا أحد**

يوميات في الشمال الأوروبي

فاروق يوسف

هذا هو الكتاب الأول الفائز بجائزة ابن بطوطة لكتابة «اليوميات» مؤلفه شاعر وناقد تشكيلي عراقي مقيم في السويد ، ويومياته هذه تعكس الداخل الإنساني الهارب من صقيع المنفى الأوروبي وجهنم مسقط الرأس إلى عالم الذات في اتساق الخارج مع الداخل . «لا شيء . . لا أحد» كتاب من الجمال الطبيعي ، يخلو من لعبة التلفيق ، ليهب قارئه أوقاتًا من الصفاء الحقيقي . وإذا كانت كتابة اليوميات فنًا يقع في خانة التأريخ لليومي والشخصي ، متقاطعًا مع حياكات مجتمعية وتاريخية

أخرى ، بالغة التعقيد بفعل مركّباتها النفسية والمزاجية المتعلقة بلحظة الكتابة ، فإن هذه الكتابة تتقاطع أيضًا مع المكان الآخر بوصفه الشاهد الصامت على كل لحظة يعيشها المنفي .

بالنسبة لواقعنا الشرقي ، وثقافتنا العربية تبدو كتابة اليوميات عملاً بالغ الندرة ، فقد ألِف الكتاب العرب القدامى فكرة التأليف المعرفي والأكاديمي بصورته الموضوعية غالبًا ، غير الشخصية ، وغير المتماهية مع الذات بوصفها فاعلاً في إنتاجنا المعرفة وفي علاقتها الوجودية بالمعرفة .

في هذه اليوميات يمزج الكاتب تأملاته وخواطره عن ذاته وعالمه بسطور شعرية سرعان ما تطغى على الجزء الثاني من كتابه ليتحول الشعر إلى شريك أساسي في هذه اليوميات . وعلى رغم أن الشق الأول من الكتاب أكثر إبداعية لما في نثره المضيء من سطوع وعلو ، مقابل سطور الشعر التي ستغادر قدرتها على الإدهاش لتستقر في نمط متوقع ، إلا أننا بإزاء يوميات عجيبة في قدرتها على نقل ما يعتمل في نفس صاحبها وما يتوارد إلى خاطره ، وكذلك ما يغامر فكره وملكاته الإبداعية صوبه .

كتاب استحق عن جدارة كبيرة جائزة ابن بطوطة لكتابة «اليوميات» في دورتها الأولى ، فهو لبنة أكيدة في سلسلة من الكتب التي ستترى الواحد بعد الآخر لتثري المكتبة العربية والقارىء العربي بأدب التجارب الشخصية ، وبالسفر مع الكائن ليس في رحلة واحدة أو بضع رحلات في الجغرافيا ، وإنما ، هذه المرة ، في رحلة حياته كلها . إنها اليوميات .

هـ - جائزة ابن بطوطة للرحلة الصحفية:

*** رصيف القتلى**

مشاهدات صحافي عربي في العراق

إبراهيم المصري

يوميات ملتهبة لشاعر يتجول بعينين مفتوحتين وعقل متحفز مستطلعًا فاجعة

الحرب من الزوايا الأكثر إيلامًا : الإنسان ومصيره . على أنقاض الديكتاتورية وفي ظلال آلة الحرب الأميركية وجنودها ، قام الشاعر بلباس الصحافي وعدّته بمغامرة تنطوي على مجازفة وخطرٍ كبيرين ، ليروي في كتابه هذا قصصًا إنسانية التقطها من شهود الفاجعة بوصفه مراسلاً تلفزيونيًا يغطي أحداثًا في منطقة تلتهمها الحرائق .

أفاد صاحب الرحلة مما سبق وأنجز من تقارير تلفزيونية عن مآسي الديكتاتورية والحصار والحرب ، فإذا به يؤلف كتابه من مقبرة جماعية في كربلاء ، وأرض مجففة في الأهوار ، ومعارض إسلامي حفر مخبأ في بيته وتوارى فيه اثنين وعشرين عامًا ، هربًا من أجهزة الأمن السياسي ، وطفلة مشلولة لم تجد علاجًا ، ومخدوعًا بالديكتاتور فهو من فدائييه ، وشاب يباهي بقميصه الذي داس عليه صدام ذات يوم بحذائه ليخاطب الجماهير ويرتقي عربته العسكرية ، إلى مساجد الديكتاتور التي أنفق في بنائها مئات الملايين من الدولارات فيما كان شعبه يئن تحت وطأة حصار أودى بحياة الملايين ، وخصوصًا الأطفال .

لجنة التحكيم ، التي أبدت عدم اتفاقها مع الكاتب حول بعض التفسيرات السياسية للأحداث ، ارتأت أن الكتاب يستحق جائزة ابن بطوطة للرحلة الصحافية لصدقه وجرأته في الكشف عما توصل إليه من قصص وأحداث ومشاهد ذات دلالات إنسانية ، انتصر معها الكاتب لقضايا الناس المظلومين ولفكرة الأمل وإرادة الحياة على مظاهر اليأس .